سلف للبحوث والدراسات
www.salafcenter.com

خمس تراجم معاصرة لشيخ الإسلام ابن تيمية

جمع وتعليق
د. علي بن محمد العمران

دار سلف
للنشر والتوزيع

خمس تراجم معاصرة

لشيخ الإسلام ابن تيمية

ⓒ دار إبراهيم محمد السعيدي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمران ، علي

خمس تراجم معاصرة لشيخ الاسلام ابن تيمية. / علي العمران.- مكة المكرمة ، ١٤٣٩ هـ

.. ص : .. سم

ردمك: ٢-٧-٩١٠٧٩-٦٠٣-٩٧٨

١- ابن تيمية ، احمد بن عبد الحليم، ت ٧٢٨ هـ أ.العنوان

ديوي ٩٢٢,١١٧ ١٤٣٩/٨١٨٨

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٨١٨٨

ردمك: ٢-٧-٩١٠٧٩-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

دار إرسلف للنشر والتوزيع

العنوان (المملكة العربية السعودية - مكة المكرمة)

البريد الإلكتروني (salafcenter3@gmail.com)

موقع سلف الإلكتروني (https://salafcenter.org)

جوال سلف (0565412942)

تويتر (@salafcenter)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسوله محمد، وعلىٰ آله ومن اقتفىٰ آثاره إلىٰ يوم الدين.

وبعد، فقد كُتب عن الإمام العلامة شيخ الإسلام أبي العباس أحمد ابن تيمية في العصر الحديث، مئات الترجمات والدراسات والأبحاث في شتىٰ فنون المعرفة، وسُلّط الضوء علىٰ ترجمته وأخباره ومواقفه ودوره في كثير من نواحي العلم والمعرفة في كثير من الجامعات العالم الإسلامي والغربي، بل كتب عنه من الرسائل العلمية (الماجستير والدكتوراه) ما يفوق الثلاثمئة رسالة في مختلف فنون المعرفة..

وقد دعوتُ في مناسبات شتىٰ إلىٰ دراسة هذه الدراسات وتسليط الضوء عليها، لمعرفة نتائجها وخلاصاتها وتوصياتها والكشف عن متميّزها وقاصرها، وفي ذلك فوائد لا تخفىٰ علىٰ فوَقة الدراسين من ذوي الاختصاص بشيخ الإسلام والعلوم الشرعية والإنسانية.

وشيخ الإسلام شخصية عظيمة حتىٰ في نظر خصومه وأعدائه والمخالفين له من شتىٰ المذاهب والمشارب، لأسباب عديدة

فرضَتْها الصفات النادرة التي وهبه الله إياها وتمثّله لها طيلة حياته؛ من التمكّن مِن ناصية العلوم، وسَعَة الحفظ، والإنصاف في البحث، والتحقيق في المسائل، والدراية التامّة فيما يتكلم فيه ويبحث، وكثرة المصنفات والتآليف، وصفات أخرىٰ تتعلق بشخصيته كالزهد والكرم والشجاعة والفراغ من الدنيا والمشاركة القوية في الأحداث التي عاصرها، ودوره مع الأمراء والعلماء والعامة. وهذا أمر متفق عليه بحمد الله.

كان ابن تيمية في عصره ملءَ السمع والبصر، وكانت كتب التواريخ في المدة التي عاش فيها لا تتصدر سِنّي الحوادث إلا بذكره وذكر أخباره، كتاريخ البرزالي واليونيني والنُّوَيري وابن كثير والدواداري والفيومي وغيرها.

ولم تنطفأ الشعلةُ التي أوقدها ابن تيمية من حين وفاته إلىٰ يوم الناس هذا، بل إنها تزداد توهّجًا وإضاءة ولمعانًا، وقيّض الله لمن شاء من عباده أن يخدموا تراث هذا العلَم النادر المثال في مشارق الأرض ومغاربها.. حتىٰ عمت مصنفاتُه وعلومُه الآفاق، فنهَل منها كلُّ محبّ للدين والعلم والمعرفة والتحقيق.

ولم يتحطّط في طول الزمان وعرضه في الكلام علىٰ الشيخ إلا أفرادٌ من المخالفين ممن عُرفوا بالنّزَق في البحث والتهجّم علىٰ الأمور بلا رويّة، أما في وقت الشيخ فقد وقف العلماء من كل مذهب

لهم بالمرصاد، وبيّنوا تجنّيهم وردّوا كلامهم في أفواههم.. فارعوىٰ أولو السّفَه آنفَ الدهر عن الوقيعة في الشيخ، إلىٰ أن بلينا في دُبر الزمان بِهَبَنّقات يُسمّون كُتّاباً (لو ابنسطت يدي فيهم رددتهمُ إلىٰ الكُتّاب!) من ذوي المشارب المناهضة للإسلام جملة أو من منتحلي المذاهب الحديثة من علمانية واشتراكية ويسارية وليبرالية؛ كتّاب أجزم أو أكاد أنهم لم يقرأوا عنوانات كتب الشيخ، ولو قرأوا لم يحسنوا الفهم، ولو فهم بعضُهم حرّفوا النقل عن وجهه، فهم في غيّهم يتقلّبون، فتراهم يتسارعون للكتابة فيما لا يفقهون!

وما تواصيهم في هذا الأمر ومساعدة بعضهم بعضًا فيه إلا أنهم رأوا ابن تيمية رأسًا في العلم ورأسًا في العمل ومرجعًا للسلفيين بل للمسلمين؛ فتقطّعت حينئذٍ مرائرُهم المريضة حنقًا، لا علىٰ شخصه ولكن علىٰ ما يمثّله من فكر ومنهج، وخلا لهم الجو فغرّدوا بمستقبحٍ من القول وسفيهٍ من اللفظ وساقط من الفكر... يتبارون في ذلك أيّهم أكثر بذاءة وسَفاهًا علىٰ رؤوس الأشهاد! بكلام تافه لا حجة ولا عقل ولا نقل؛ لكنهم بحمد الله لم يرجعوا بما فاهوا إلا بصفعات علىٰ صفحات ما اقترفته أيديهم، وبخيبة تملأ عيونهم، وبخواء يصفر في عقولهم، هدىٰ الله كل متجنٍّ ضال.

وكان من أمري دفاعًا عن هذا العلَم الكبير وتبصيرًا للناس بإنصاف طوائف الكُتّاب علىٰ اختلاف بلدانهم ومشاربهم= أن

اخترت من سيل التراجم خمسًا معاصرة[١] انتخبتها من عشرات التراجم التي كتبت عنه، وكان هذا الانتقاء يستند إلىٰ تنوّع الكُتّاب في المشارب والمذاهب والبلدان وفي طريقة التناول:

◊ فاخترت من المستشرقين المستشرق الفرنسي هنري لاوست، وهو من أكثر المستشرقين عناية بابن تيمية وكتابة عنه، وبحثه بعنوان (النشأة العلمية عند ابن تيمية وتكوينه الفكري) نشر ضمن أعمال أسبوع الفقه الإسلامي ومهرجان ابن تيمية بدمشق عام ١٣٨٠ هـ. وهو موضوع مهم قليلا ما طرق وإن كان الكلام علىٰ هذا الشأن يحتاج إلىٰ بحث أوسع واستقراء ونظر ومقارنة.

◊ ومن علماء مصر الشيخ العلامة محمد أبو زهرة، في ترجمة طويلة محررة تعتبر من آخر ما كتب الشيخ، وهي تالية لما كتبه عن ابن تيمية في كتابه المفرد عنه، وهي منشورة أيضا ضمن أسبوع الفقه الإسلامي المتقدم ذكره.

◊ ومن الشام العلامة الأديب محمد كردعلي رئيس المجمع العلمي العربي، وصاحب مجلة المقتبس، والمؤلفات الكثيرة المعروفة، وترجمته هذه نشرها ضمن كتابه (كنوز الأجداد) وهي ترجمة جميلة فيها احتفاء زائد ولفتات رائعة، وقد كسر بهذه

---

(١) استوعبنا في (الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون) التراجم القديمة من سنة ٧٠٠ – ١٣٠٠ .

الترجمة جمودًا خيّم على كثير من بلاد الشام تجاه الشيخ رحمه الله، ولا شك أن للشيخ طاهر الجزائري أثرًا واضحًا في تعرّف كردعلي على ابن تيمية ومعرفة مكانته، إضافة إلى تحرره مِن كَودنة نقَلَة المؤرخين وترداد ما يلوكه سابقٌ عن لاحق في ترجمة الشيخ ودعاواهم ضده.

◊ ومن المؤرخين: المؤرخ نقولا زيادة من كتابه (قمم من الفكر العربي الإسلامي)، وفي ترجمته كلمات مضيئة وتنابيه إلى معاقد ما كان يدعو إليه ابن تيمية وينافح ويناضل، وختم كلامه بقوله الجميل: (ابنُ تيمية كان سلفيًّا لكنه كان سلفيًّا مُصلحًا قويًّا في دعوته، شديدًا في الحاجة إلى الحق والعدل، متشددًا في أنْ يكونَ الإيمانُ صحيحًا صريحًا خاليًا من الشوائب. لقد كان إمامَ السلفيين).

◊ واخترنا من الموسوعات دائرة المعارف الإسلامية، وقد قام عليها طائفة من الباحثين المستشرقين: م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان. وكانت ترجمة الشيخ من نصيب محمد بن شنب كما جاء في آخرها.

وهي ترجمة جيدة في الجملة، غير أن محررها لم يوفّق في بعض ما كتب؛ تسليمًا لما في بعض المصادر الثانوية في ترجمة الشيخ، كاعتماده على كلام ابن بطوطة في رحلته، وهو كلام باطل

مدحوض، علّق عليه تكذيبًا وإبطالًا كثيرٌ من العلماء والباحثين، كما بيّناه في الجامع لسيرة ابن تيمية ص٤٦١.

وأخطأ أيضًا باعتماده على حكاية خصومه في دعوى مسألة التجسيم (أو التجسيد)، والشيخ منها براء كما هو معلوم لكل من طالع كتبه وانعتق من ترديد كلام خصوم الشيخ المنكرين لصفات رب العالمين، فالشيخ ما زاد عن إثباتها كما أثبتها السلف الكرام والأئمة الأعلام.

وأخطأ أيضًا في حكاية أوفهم بعض الاختيارات التي نسبها للشيخ، لبُعد الكاتب عن الفقه أو عن علوم الشريعة أو عن تفهّم صورة المسألة.. وقد علقنا عليه في موضعه من الترجمة.

وله أخطاء أخرى في الصياغة والتعبير وبعض الإطلاقات يعرفها من قرأ ترجمة ابن تيمية.

وكتب

علي بن محمد العمران

٦ شعبان ١٤٣٩ هـ

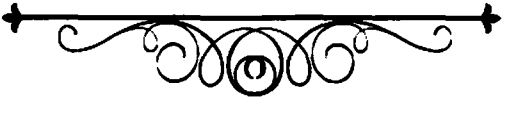

التعريفُ بابن تيميَّة

للشيخ العلامة

محمد أبو زهرة

التعريفُ بابن تيميَّة[1]

١- كان السائرُ في الطريقِ بين حَرَّانَ ودِمَشق حوالي سنة ٦٦٨ يَجِدُ أسرةً كبيرة تسيرُ في هذا الطريق، فَصَلَت عن حَرَّان إلىٰ دمشق، تسير ليلًا وتأوي إلىٰ كِنٍّ آمِنٍ مِنَ الأرضِ نهارًا، قد فَرَّت مِن سيوف التتار في ظلمةِ الليلِ البهيم، وهي في طريقها إلىٰ حيث الأمنُ والاستقرارُ في دمشق الفيحاء مأوىٰ العلم والعلماء، وقد ناءَت تلك الأسرةُ بحِمْلِها، فلم تَجِدْ مِن الدوابِّ ما يحمله، وكان في العرباتِ تَجْرٌ[2] ما أغناها عن الدواب تَحْمِل، وما كان متاعُ هذه الأسرةِ ذهبًا أو فضة، أو حُلِيًّا وطنافِس، أو غيرَ ذلك مِن متاعِ هذه الدنيا، بل كان حملُها الذي تحمله هو تركةَ الأنبياء، وثروةَ الأجيال؛ هو علمَ الدِّين.

فسارت بأوقارِها حتىٰ آوَت إلىٰ دمشق، فآوَت إلىٰ ركنٍ سديد[3]. ومع هذه الأسرة غلامٌ يقظُ العقلِ والنفسِ في السابعةِ من عمره، قد تَفَتَّحَ حِسُّه فوجدَ هذه الحربَ الضروسَ التي ضَرَسَتْه وأسرتَه بأنيابِها، فصَقَلَته التجربة، ولم ينشأْ في حِلْيَةٍ فاكهةٍ بالنعيمِ

---

(١) أسبوع الفقه الإسلامي ومهرجان الإمام ابن تيمية ص٦٥٨- ٧١٣

(٢) التَّجْر: المتاع والبضاعة.

(٣) كذا، ولعلها شديد، وهو المناسب لوصف الركن.

والأمنِ والاستقرار، بل نشأ في الشديدةِ قد مَرَّسَت نفسَه وجسمَه.

ذلكم الغلامُ هو أحمد تقيُّ الدين أبو العباس بن الشيخ شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ مَجْد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الخَضِر بن محمد بن الخَضِر بن علي بن عبد الله، وتُعْرَف هذه الأسرة بأسرةِ ابن تيميّة.

❁ مولد ابن تيمية:

٢- كان مولدُ ابن تيمية في العاشِر مِن ربيع الأول سنة ٦٦١هـ، ويذكر بعضُ العلماء أنَّ مولده كان في الثاني عشر من هذا الشهر، ولعلَّ[١] أولئك يريدون أنْ يُثبِتوا أنَّ مولدَه كان موافقًا لمولد الرسول تَيَمُّنًا بأنه سيُحيي سُنَّتَه، ويَدْعَمُ بالحُجَجِ شريعتَه، ويدافعُ عنها إلىٰ أن يموتَ في مَحْبَسِه.

والشيخُ شهاب عبد الحليم والدُ ابن تيمية يُذْكَرُ بالحَرَّاني[٢]، كما يُنْسَبُ ابن تيمية الصغير هذه النسبة، والنسبةُ إلىٰ البلدِ دون القبيلة تُومِئُ إلىٰ أنه ليس بعربيّ؛ لأنَّ العربَ يحتفظون بأنسابِهم،

---

(١) هذا تعليل بعيد كما لا يخفىٰ.

(٢) يذكر صاحب القاموس أن النسبة إلىٰ حرّان هي حرناني، وهي نسبة سماعية، ويخطئ من يقول: حرّاني، وهي للنسبة القياسية. (ز)

وغير العربِ لا يحتفظون، ولكنَّ الأستاذ بهجت البيطار -حفظه الله- أَثْبَتَ أنه عربيٌّ نُمَيْريّ[١]. ولا يَهُمُّنا نَسَبُه؛ فمثل ابن تيمية يَفْخَرُ به مَنْ يكونُ منهم، ولا يَفْخَرُ هو بهم، فما غَضَّ مِنْ مقامِ أبي حنيفة أنه فارسيّ.

ولم يذكر المؤرِّخون عن أُمِّه ولا عن قبيلها شيئًا، وإذا كان أبوه قد مات وابن تيمية في مقتبل العمر - إذ مات سنة ٦٨٢، أي وابن تيمية في الحادية والعشرين - فقد عاشَت أمُّه بعد ذلك، وعاشت حتىٰ رأت مَجْدَ ابنها يكتمل، وقد صارَ المجاهدَ الأوَّلَ لإحياءِ الشريعةِ ودفعِ الأوهام عنها، وعاونته في جهاده ببِرِّها وحَدْبِها وعطفِها، وعندما كان في ميدانِ العملِ بمصر مِن بعدِ الاعتقال كان يرسل إليها كُتبًا[٢] تفيض عطفًا وبرًّا ووفاءً وإحسانًا، حتىٰ إنه ليخفي عنها آلامَه لكيلا تصيبها لوعةُ الألمِ والفراقِ معًا.

وعندما انتقلت الأسرةُ إلىٰ دمشق جلس كبيرُها في مجلسِ مِثْلِه مِنَ العلماءِ الذين يُشارُ إليهم؛ إذ أنه بمجرد أنْ وصلَ إلىٰ دمشق ذاعَ فضلُه، واشْتَهَرَ أمرُه؛ إذ العلمُ نورٌ يضيءُ حول صاحبه فتعشو إليه الأبصار. فكان له كرسيٌّ للتدريس والوعظِ بجامعِ دمشق الأعظم،

---

(١) وقبله الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقيّ ت٨٤٢ في بديعة البيان وشرحها التبيان، والعدوي في الزيارات. انظرها في الجامع لسيرة شيخ الإسلام (ص: ٤٩١، ٧٢٦).

(٢) انظر بعضها في العقود الدرية ص: ٣١٦

المسجدِ الأُمَويّ، وتولَّىٰ مشيخةَ دار الحديث بالسُّكَّريَّة، وبها كان سكنه، وفيها تَرَبَّىٰ ولده تقيُّ الدين.

ومما لوحظ علىٰ درسِ ذلك العالِمِ الكبيرِ أنه كان يُلقي دروسَه غيرَ مُستعينٍ بقرطاسٍ مكتوب، أو كتابٍ يتلو منه، أو مُذَكِّراتٍ يستعين بها الوقتَ بعد الآخر، بل كان يُلقي الساعاتِ مِنْ ذاكرتِهِ الواعية، وهذا يَدُلُّ علىٰ قوةِ الذاكرةِ الحافظة، وثباتِ الجَنان، وهي الصفاتُ التي بَرَّزَ بها ابنُ تيمية تقيُّ الدين؛ إذ كان مِنْ أخصِّ صفاته: الحافظةُ الواعية، والبديهةُ الحاضرةُ التي كان يَقْرَعُ بها الحُجَّة، ويُشْدَهُ لها الناظر، ويَتَحيَّرُ عندها المجادل.

❁ نشأته:

٣- نشأَ ابن تيمية في أسرةٍ علمية، عَمَلُها البحثُ والدراسةُ والقلمُ والبيان، فكانت بيئته تتَّجِهُ به إلىٰ العلمِ وتحدوه إليه، وتجعل فيه نزوعًا نحوه، ومحبةً له.

وقد وجَّهَته الأسرةُ إلىٰ ذلك، فاسْتُحْفِظَ القرآنَ صغيرًا، واستمرَّ عُدَّتَه يَستَذْكِره، ويَتعبَّدُ بتلاوته، حتىٰ إنه كان سميرَه في محبسه الذي ماتَ فيه، فقد قال الرواة: إنه تلا في سجنه ثمانين ختمة مِن القرآن[1].

---

(١) انظر العقود الدرية ص ٣٨٤.

وقد وُجهَ مِن بعدِ القرآنِ إلىٰ الحديث، فأخذ يَتْرَعُ مِن مائه العَذْب، وخصوصًا أنَّ أباه علىٰ رأسِ مشيخةِ الحديث. ومع الحديثِ فِقْهُه؛ ففِقْهُ الحديثِ لُبُّ الدِّين.

وقد امتازَ ابنُ تيمية منذ نعومةِ أظفارِه بثلاثِ صفاتٍ هي التي سارَت به نحو الكمال، ونحو العلمِ الناضج، **وهذه الصفات هي:**

١) الجِدُّ والاجتهادُ والمثابَرَة، والانصرافُ إلىٰ المُجْدي مِنَ العلوم، فكان لا يلهو لهوَ الصبيان، ولا يَعْبَثُ عَبَثَهم.

٢) وتَيَقُّظُ حِسِّه، وتفتُّحُ عقلِهِ ونفسِهِ لكلِّ ما حوله يُدرِكُه ويَعيه، وقد ربَّىٰ ذلك فيه تتبُّعَ الأحداثِ القارعةِ للحسِّ مع عقلٍ نافذٍ أريب.

٣) (جـ) والذاكرةُ الحادَّةُ والفكرُ المستقيم. وقد كانت ذاكرتُهُ حديثَ الغلمانِ مِن زملائه، وتجاوَزَ ذلك الصبيانَ إلىٰ الرجال؛ فتسامَعت به دمشقُ وما حولها. وقد ذُكِرَت في ذلك رواياتٌ وأخبارٌ قد يبدو بادئ الأمر أنها مِن صنع الخيال، ولكنَّ المتتبَّعَ لحياةِ ابن تيمية مِنْ بعد يُذْعِنُ لصدقِ جُلِّها، إنْ لم يُصدِّقْها كلَّها.

ومهما تكن قيمةُ هذه الأخبار؛ فالثابتُ أنَّ ابن تيمية قد آتاه الله تعالىٰ ذاكرةً واعية. والذاكرةُ هي القياسُ الأوَّلُ للذكاءِ قوةً وضعفًا، وقد وَرِثَ ابن تيمية هذه الموهبةَ عن أسرتِه.

٤- اتَّجَه أحمد تقي الدين إلىٰ العلمِ كشأنِ أسرته؛ فقد كان أبوه علىٰ مشيخةِ الحديثِ في بعضِ مدارسِ دمشق كما أَشَرْنا،

ولم يكن تاجرًا كأبي حنيفة؛ إذ كان أبوه تاجرًا، ولذا كان ينصرف إلىٰ الأسواقِ في صدرِ حياته، ولم ينقطعْ عنها طولَ حياته؛ فكان المنطقُ أنْ يَتَّجِهَ تقيُّ الدين إلىٰ العلم، وكان المنطقُ أيضًا أن يتَّجِهَ بعد القرآنِ إلىٰ الحديث، ويجعلَه هَمَّ نفسِه في الطلب، وقد تلقَّاه عن أبيه، وسمع الكتبَ علىٰ مشايخِ الحديثِ الكبار، فسمع منهم الدواوينَ الكبيرة؛ كمسند الإمام أحمد بن حنبل، وصحيحِ البخاري، وصحيحِ مسلم، وجامعِ الترمذيّ، وسنن أبي داود، والنَّسائيّ، وابن ماجه، والدارقطنيّ، ويذكر بعضُ معاصريه أنه حَفِظَ «الجمع بين الصحيحين» للإمام الحُمَيدي.

وقد اتَّجَهَ مع الحديثِ إلىٰ الفقهِ الحنبليّ؛ فقد كان فِقهَ الحديث، وهو مذهبُ أسرة ابن تيمية، فكان أبوه هو الموجِّهَ إليه فيه، فقد أخذ يَعُبُّ منه حتىٰ أُشْرِبَ منطقَه، وعَلِمَ كلياتِه وجزئياتِه.

وكان معنيًّا في صباه بتعرُّفِ آثارِ الصحابة والتابعين، وأقوالِ التابعين وشيوخِهم من الصحابةِ في معنىٰ آيِ القرآن الكريمِ والسنَّةِ والفتاوي.

ولم تكن دراستُهُ مقصورةً علىٰ علمِ الدِّين وحده مِن كتابٍ وسنةٍ وفقهِ السنَّةِ ومعاني القرآن، بل عُنِيَ بأداةِ هذه العلوم الدينية، وهي علومُ العربية؛ فدرسها كأنه يَقْصِدُ إليها ليتخصَّصَ فيها، فحفظَ كثيرًا مِنَ المنثورِ والمنظومِ وأخبارِ العرب في القديمِ وأيام ازدهارِ الدولةِ الإسلامية، وبرعَ في النحوِ براعةً واضحة، حتىٰ إنه ليقرأ كتابَ

سيبويه ويدرس شواهِدَه دراسةً فاحصةً ناقدة؛ فيخالفُ بعضَ ما انتهىٰ إليه سيبويه مُعْتَمِدًا في المخالَفَةِ علىٰ ما دَرَسَ في غيره؛ فلم يكن المتهجِّمَ مِنْ غيرِ بيِّنة، ولا المُندفِعَ مِنْ غيرِ حُجَّةٍ وسلطانٍ مِنَ الحقِّ مبين.

ومع هذه العلوم الدينيةِ الزاخرةِ كان يرهف فكرَه وعقلَه بالعلومِ الرياضية، وآراؤه التي ظَهَرَت مِنْ بعد تَدُلُّ علىٰ إلمامه بآراءِ الفلاسفةِ وبعضِ العلومِ الفلسفيةِ كالمنطق، وإذا كان له كتابٌ في نقضِ المنطقِ؛ فإنه علىٰ معرفةٍ به معرفةً دقيقة، مَكَّنَتْه مِنْ أن يُناقِضَه؛ فلا يمكن أنْ يُناقِضَه وهو يجهله، بل لا بدَّ مِنْ معرفةٍ فائقةٍ ناقدةٍ فاحصة.

❁ البيئة الأولى التي وجَّهَته:

٥- كان يسير في هذه الدراسةِ تحت ظلِّ أبيه، وقد كانت ملازمتُهُ لهذا الأبِ العالِم ذات جدوىٰ مثمرة، وقد قال أبو حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التوجيهِ العلميّ، عندما سُئلَ عمَّن وَجَّهَه، فقال: «كنتُ في مَعْدِنِ العلمِ والفقهِ فجالَستُ أهله، ولَزِمتُ فقيهًا مِنْ فقهائهم».

وقد تحقَّقَ الأمران لتقي الدين، فقد لازَمَ أباه، وكان في معدنِ العلم: دمشق؛ فإنَّ ذلك المِصْرَ كان ثانيَ اثنين مِنْ أمصارِ المسلمين

أوىٰ إليهما العلماءُ في المشرقِ والمغرب، وأوَّلُ المصرَين: القاهرة؛ فإنَّ العلماءَ مِنَ المغربِ أخذوا يأرزون إلىٰ القاهرة ليجدوا فيها الحمايةَ في ظلِّ حُكَّامها الذين كانوا يُحسِنون ضيافةَ العلماءِ وإيواءَهم، ويُجْرون الأرزاقَ عليهم، ويَحْبِسون الأحباسَ لهم، ولَمَّا أغارَ الصليبيون مِنْ قبلُ أَخَذَ العلماءُ يتجهون إلىٰ دمشق، ثم إلىٰ القاهرة.

ولَمَّا أغارَ التتارُ في الشرق، واستولَوا علىٰ المدائنِ الإسلامية يعيثون فيها فسادًا، حتىٰ سقطت حاضرةُ الخلافة في أيديهم؛ فَرَّ العلماءُ بعلمهم إلىٰ دمشق، ومنهم مَن اتَّخَذَ منها مستقرًّا ومقامًا، ومنهم مَنْ نأىٰ به الخوف فاجتازَها إلىٰ القاهرةِ العامرة.

كانت دمشقُ إذن في عهدِ ابن تيمية عُشَّ العلماء، وقد أوَت أسرتُه إلىٰ ذلك العُشِّ الكريم. وكان فيها مدارسُ للحديث، والفقهِ الشافعيّ، والفقهِ الحنبليّ، وغيرهما، فقد كان فيها أمثالُ عزِّ الدين بن عبد السلام، ثم النوويّ، وابن دقيق؛ يدرسون الفقهَ والحديثَ دراسةً فاحصة، فيقارنون في الفقهِ بين المذاهبِ الإسلامية؛ كما ترىٰ في كتاب «المجموع» للنووي، وكما ترىٰ في كتاب «المغني» لموَّفق الدين عبد الله [بن] أحمد بن قدامة، وهو حنبليّ.

ويدرسون مع الفقهِ الحديثَ دراسةً فاحصةً لرجالِ الأسانيد، ومتونِ الأحاديث، وموازنةِ المرويَّاتِ بعضِها ببعض، وقد جُمِعَت

الأحاديثُ ودُوِّنَت؛ فكانت الدراسةُ علىٰ بينةٍ واستقرارٍ[١] وفحص، وقد زَخَرَت المكاتبُ بالكتب الضخمة التي أنتجتها الدراسةُ في ذلك العهد، حتىٰ إنَّ القارئ ليقرأُ البابَ مِنَ الأبواب، فيجد الأحاديثَ الواردةَ فيه مُجتمعةً كلَّها، غريبَها وحَسَنَها، وصحيحَها وضعيفَها، مع التنبيه علىٰ مراتِبِها، وما بينها مِنْ توافقٍ وتعارض، وتضعيفِ أقواها لِما هو دونه في المرتبة، فيسهلُ علىٰ الدارسِ طلبُ الحقِّ بأيسرِ كُلْفَة.

وكان في دمشق مع الفقهِ والحديثِ دراسةُ العقائد، وكان السائد هو مذهب أبي الحسن الأشعريّ[٢]، وكان يُتَّبَعُ علىٰ أنه السنَّة، وقد قَوَّاه صلاحُ الدين، ويقول المقريزيُّ في «خِطَطه»: «حَفِظَ صلاحُ الدين في صباه قصيدةً ألَّفَها قطبُ الدين أبو المعالي مسعود بن محمد النَّيْسابوريّ، وصار يُحَفِّظُها صغارَ أولاده؛ ولذا عقدوا الخناصر، وشَدُّوا النيَّاتِ علىٰ مذهبِ الأشعريّ، وحَمَلوا في أيَّامِهم كافَّةَ الناسِ علىٰ التزامِه، فتمادت الحالُ علىٰ ذلك في جميعِ أيامِ الملوكِ من بني أيوب، ثم في أيامِ مواليهم الأتراك».

---

(١) كذا، ولعل الصواب: واستقراء، كما يدل عليه السياق.

(٢) ولد سنة ٢٦٠ وتوفي سنة بضع وثلاثين بعد الثلاثمائة، وكان معتزليًا ثم ترك الاعتزال، واعتنق مذهب أهل السنة، وقَبِل كل الأحاديث الواردة في الاعتقاد، ولكنه كان يؤوّل المتشابه من القرآن والحديث، وبذلك خالف بعض الحنابلة، الذين كان منهم ابن تيمية. (ز)

وقد كان أبو الحسن الأشعريُّ مع استمساكه بالسنَّةِ يَسيرُ في إثباتِ العقائد في مسارِ المنطقِ والفلسفة؛ فهو يتَّفِقُ مع السُّنّيين في النتائج، ولكنْ يَسلكُ في إثباتِها غيرَ سبيلِ بعضِ الحنابلة، ولذلك كانت الحربُ بينهم وبين الجمهورِ مِنْ أتباعِ أبي الحسن الأشعريّ.

وقد تَلَقَّىٰ ابن تيمية الحنبليُّ طريقةَ الحنابلة الذين ناوؤا المذهبَ الأشعريّ، ولذلك كانت مناضلاتٌ له مِنْ بعد في هذا السبيل، ونزلت به مِحَن، وكادَت نفسُه تذهبُ في هذا الأمر.

❁ توليه التدريس في كرسي أبيه:

٦- اتَّسَعَت آفاقُ دراسةِ ابن تيمية، وكانت دراساته مستوعِبةً في الفقهِ والحديثِ والعقائد، وعلومِ العربية، وكان له اطلاعٌ علىٰ العلومِ الرياضيةِ والفلسفية، ودراساتُه المقارِنة تدلُّ علىٰ معرفتِه لآراءِ الفلاسفة.

ولما شَبَّ أحمد عن الطَّوق وامتلأَ قلبُه بالمعرفة واستوىٰ رجلًا سويًّا جَلَسَ في مجلسِ الدرسِ بعد أبيه، إذ أبوه قد ماتَ سنة ٦٨٢؛ فتولَّىٰ مِنْ بعده أحمد حلقةَ درسِهِ وهو في الحاديةِ والعشرين، فتقدَّمَه بما تَغَذَّىٰ به مِنْ معارف السابقين، وقد أثْمَرَت في قلبه أَيْنَعَ الثمارِ وَأغْزَرَها وأنْضَجَها، وتقدَّمَ واثقًا بمعونةِ ربِّه ليؤديَ الأمانةَ التي حَمَلَها. وإذا كان مثله في سنِّه لا يزال في مَيْعَةِ الصِّبا، وغرارةِ الحياة؛ فقد بَلَغَ هو في العلمِ أَشُدَّه.

تقدَّم بعلمِه ودراساتِه واستعدادِه لتلقي المعارفِ مِن كلِّ ناحية، فألقىٰ دروسَه في الجامعِ الكبيرِ بلسانٍ عربيٍّ مُبين، فاتجهت إليه الأنظار، واستمعت إليه أفئدةُ سامعيه، وانتقلَ كثيرون مِنَ المستمعين إلىٰ مريدين مُتحمسين معجَبين، فصار له مِن بينهم مخلصون إخلاصَ الحواريين، وكانت دروسُهُ تَجْمَعُ الموافقَ له والمخالِف، والبدعيَّ والسُّنيّ، ومُعتنقَ مذهبِ الشيعةِ ومَنْ هو مع الجماعة. وكانت غزارةُ علمِه تبدو علىٰ لسانه، حتىٰ إنَّ ابن دقيق العيد الفقيهَ المُحَدِّثَ يَلْقاه - وهو أكبرُ منه سنًّا - فيقول فيه: «رأيتُ رجلًا جَمَعَ الله العلومَ كلَّها بين عينيه، يأخذُ منها ما يريد، ويَدَعُ ما يريد».

وكان مع هذا العلم له شخصيةٌ قويةٌ نَفَّاذة، ولا يخلو مِنْ حِدَّة، وقد وَصَفَه الذهبيُّ الذي عاصَرَه فقال: «كان أبيضَ أسود الرأس واللحية، شعره إلىٰ شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، رَبعة من الرجال بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيحًا سريع القراءة، تعتريه حدة، لكن يقهرها بالحلم».

وقد اختلف أهل العلم منذ سمعوه، ما بين موافقٍ له مُتحمِّس لِما يقول يُشايعه ويُناصِره، وفريقٍ يُقاوِمُه ويُنازِلُه، لأنه هَجَمَ بفكرٍ لم يألفوه، وفريقٍ ثالثٍ يوافقه في بعض قوله، ويخالفه في آخَر، وهو في حاليه مُعجَبٌ به، مُقدِّرٌ لعلمِه وشخصِه. ومِنْ هذا الفريق الذهبيُّ المؤرِّخ، وقد قال فيه: «ومَنْ خالَطَه وعَرَفَه ينسبني إلىٰ التقصير فيه،

ومَنْ خالفَه ونابَذَه قد ينسبني إلىٰ التغافل فيه، وقد أوذيتُ مِن الفريقين؛ مِنْ أصحابه وأضداده، وأنا لا أعتقد فيه عصمة، بل أنا مخالفٌ له في مسائلَ أصليةٍ وفرعية، فإنه كان مع سَعةِ علمه، وفرطِ شجاعته، وسَيَلانِ ذهنه، وتعظيمِه لحرماتِ الدين - بشرًا مِنَ البشر، تعتريه حدَّةٌ في البحث، وغضبٌ وصدمةٌ للخصوم تزرعُ له عداوةً في النفوس، ولولا ذلك لكان كلمةَ إجماع؛ فإنَّ كبارَهم خاضعون لعلومه، معترفون بأنه بحرٌ لا ساحلَ له، وكَنْزٌ ليس له نظير، ولكنهم يأخذون عليه أخلاقًا وأفعالًا، وكلٌّ يؤخذ مِنْ قوله ويُتْرَك».

٧- كانت دروسُ هذا الشابِّ لها دَوِيّ، لأنه غذَّاها بفكرٍ مستقلٍّ يَتَّبِعُ السَّلَفَ ولا يُقَلِّد، وقوَّاها بحججٍ رآها قوية، أدلىٰ بها ببيانٍ قويٍّ غذَّاه بالعاطفةِ والفكرةِ معًا، فانقسمَ الناسُ فيه ذلك الانقسامَ الذي بَدَت ظواهرُه في خلافٍ عنيف، أو وفاقٍ معه اتِّباع، أو أخذِ بعضِ قوله، وتركِ الآخَرِ مِنْ غيرِ لددٍ في خصومة.

وإنَّ الرجلَ الذي ليس له مُخالِفٌ لا يمكن أنْ يكونَ قويًّا، فكانت المخالفة ترجع إلىٰ قوةِ قوله في الكثير الغالب، وإلىٰ حدَّةٍ في نفسه في غيرِ الغالب. ولكنَّ المخالَفة لا تكون نتيجةً للحدَّةِ فقط، بل لا بد أنْ يكونَ قد أتىٰ الناسَ بغيرِ ما كان شائعًا عندهم، ولعلَّ حدَّته سببُها عنفُ المعارَضة، ورميُهُ بالكفرِ والإلحادِ في دينِ الله تعالىٰ.

ولقد هاجَمَ في دروسه الطُّرُقَ الصوفيةَ التي كانت شائعةً في عصره، وقد اقترنت بها شعوذةٌ وفسادٌ أحيانًا، وكان مِنَ المتصوِّفةِ مَنْ

مالأً التتارَ عندما ساروا إلىٰ دمشق، ثم عندما دخلوها، فكان لا بد أنْ ينالَهم بمَعَرَّةٍ لسانه، وقد كان يُعَمِّمُ في قوله ولا يُخَصِّص؛ فصار له أعداءٌ مِنْ أتباعهم أو مريديهم.

ولم يكتفِ بما يُلقي في حلقةِ درسِه، وما يُلقيه علىٰ العامَّةِ في الجامع الكبير؛ إذ قد قَسَّمَ دروسَه إلىٰ قسمَين: أحدهما للخاصَّة يُذاكِرُهم الحقائقَ التي انتهىٰ إلىٰ وجوبِ تقريرها، وقسمٌ للعامَّةِ يَعِظُ فيه ويُرشِد. ولكنه مع ذلك أضاف إليه رسائلَ كان يكتبها، ويُجيبُ بها عن الأسئلةِ تُوَجَّه إليه مِنَ المُستَفْهِمِ الطالبِ للحقيقةِ فيُبيِّن له، ومِنَ المُخالِفِ المُعترضِ لِما يقول، فيُرسِلُ إليه يؤيِّد قولَه في عنفٍ وحِدَّة، وقولٍ بليغٍ مُحْكَم، ويُشيعُ أقوالَه بالرسائلِ والإجابات؛ كما شاعَت بالدرسِ والإلقاء.

ومِنْ هنا ابتدأت المعركةُ بينه وبين معاصريه، ويذكر المؤرِّخون أنَّ أهلَ حَمَاة أرسلوا إليه يسألونه عمَّا حكىٰ الله تعالىٰ به عن نفسه مِنْ أنه ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] ومِن أنَّ كرسيه وَسِعَ السماواتِ والأرضَ وغيرِ ذلك، فأجابهم بـ«الرسالة الحموية» التي يُقَرِّرُ فيها أنه لا يُؤَوِّل، بل يُقَرِّر أنَّ لله استواءً لا نعلمه، وكرسيًّا لا نعلمه، وهو ليس مِن استواءِ الحوادث، ولا كرسيِّ الحوادث، وكذلك كان قولُه في كلِّ الآياتِ والأحاديثِ التي تذكر أنَّ لله وجهًا أو يدًا، وبَيَّنَ هذا كله في رسالته الحموية هذه، وذلك يُخالِفُ بعضَ مذهبِ أبي الحسن الأشعريّ الذي كان شائعًا، والذي يتعصَّبُ له الولاةُ والرعية.

ثم يتصدَّىٰ حينئذٍ لمُناقَضَتِهِ الكثيرون، وإنهم ليسوا في قوةِ حُجَّته، وإنْ كان رأيهم أشدَّ استمساكًا بأسبابِ التنْزيه[١]؛ ولذا يَشْكونه إلىٰ القاضي الحنفيّ، وبذلك تنتقل المناضَلةُ مِنَ القولِ إلىٰ الفعل. ولنترك الكلمةَ للحافظ ابن كثير تلميذِه؛ فقد قال في «تاريخه»[٢]، في حوادث سنة ٦٩٨: «قام عليه جماعة، وأرادوا إحضارَه إلىٰ مجلس القاضيّ جلال الدين الحنفيّ فلم يحضر، فنوديَ في البلدة في العقيدة التي كان قد سأله عن مسائلها[٣] أهلُ حَمَاة، المُسَمَّاة بـ«الحموية»، وأرسلَ في طلب[٤] الذين قاموا عنده، فاختفىٰ كثيرون منهم، وضَربَ جماعةً مِمَّن نادوا علىٰ العقيدة فسَكتَ الباقون، فلمَّا كان يوم الجمعة ذهب الشيخ تقيُّ الدين إلىٰ الميعاد بالجامع علىٰ عادته، وفَسَّر قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤]، ثم اجتمع بالقاضي إمام الدين الشافعيِّ يومَ السبت، واجتمع عنده جماعةٌ مِنَ الفضلاء، وبحثوا في «الحمويَّة»

---

(١) ومن هذا الملحظ أوتوا، ظنًّا منهم أن إثبات الصفات يستلزم التجسيم أو التشبيه.. وليس بصحيح بل نثبت له صفات تليق به سبحانه من غير تعطيل ولا تشبيه، وهذا مذهب السلف.

(٢) (١٧/ ٧١١).

(٣) في المطبوع: سائلها، والكلمة ليست موجودة في التاريخ المطبوع، ولعل الصواب ما أثبت.

(٤) في المطبوع: فطلب، والظاهر ما أثبت.

وناقشوه في أماكنَ فيها، فأجابَ عنها بما أسْكَتَهم بعد كلامٍ كثير. ثم ذَهبَ الشيخ تقيُّ الدين، وقد تمهَّدَتْ الأمور، وسَكَنتْ الأحوال وكان القاضي إمامُ الدين في معتقده حَسَنًا، وفي مقصِده صالحًا».

ونرىٰ أنه لجأ في محاكمةِ آرائه إلىٰ القاضي الشافعيّ، ولم يذهب إلىٰ القاضي الحنفيّ، وكذلك سنراه في المحنة الحقيقية التي وقعت له بعد أن خرج مجاهدًا في سبيل الله، وكان له عملٌ جليلٌ في النصر الذي أحرزه الجيشان المصري والسوري، أو إن شئت فقل: جيش الجمهورية العربية المتحدة التي جمعها الله تعالىٰ بعد طول افتراقٍ، وسنتكلم علىٰ ذلك عند الكلام في عصره إن شاء الله تعالىٰ.

❁ محنة الشيخ:

٨- علا مركزُ ابن تيمية بعد أنْ خرج من محراب العلم إلىٰ العمل في الحرب لحماية الإسلام والمسلمين مِنَ العَيْثِ في الأرض فسادًا؛ علا في نظرِ الناس، وعلا في نظرِ ناصر الدين قلاوون الذي قاد هذه الجحافلَ لوقفِ خطر التتار. وقد انتصر في آخرِ معركةٍ بين العرب والتتار، وقد تحوَّلت المعاركُ مِنْ بعد إلىٰ مكانٍ آخَر.

وقد صارت منزِلتُه في الدولةِ بحيث يُستشارُ في المناصبِ الدينية؛ فهو الذي أشار بتعيينِ الشيخ كمال الدين الشَّريشيَّ في مشيخةِ دار الحديث الكاملية بعد تقي الدين بن دقيق العيد، وصار هو الذي كان لا يُعَيِّنُ خطيبًا أو واعظًا أو رئيسَ مدرسةٍ دينية إلا

برأيه، ولم يقف الأمرُ عند ذلك السلطانِ الأَدَبيّ، بل تجاوزه إلىٰ أنْ كان يقيمُ بعضَ التعزيراتِ بأمرِ السلطان، أو بتفويضٍ مُطلَقٍ منه، وذلك إذا كانت الجريمةُ تتصلُ بأمرٍ عامّ.

يُروىٰ في ذلك أنه أُحضِرَ إليه شيخٌ مِنْ شيوخِ الباطنيَّةِ الذين سُمُّوا بالحشَّاشين، أولئك الذين كانوا شوكةً في جنبِ الدولة الإسلامية في عهدِ صلاح الدين ومَنْ جاؤوا بعده مِنَ الأيوبية الذين تولَّوا عبءَ ردِّ الصليبيين علىٰ أعقابهم خاسرين. فوجد ابن تيمية ذلك الشيخَ قد استطالَ شعرهُ، وتركَ أظفاره، وأرسلَ شاربَه، فقصَّ شعرَه، وحفَّ شاربَه، وقَلَّمَ أظفارَه، واستتابه مِنْ كلامِ الفُحْشِ في الصحابةِ وعامةِ المؤمنين، وأخْذِ ما يُغيِّرُ العقلَ مِنَ الحشيشةِ وسائرِ المُحَرَّمات، وأخذَ عليه وثيقةً بألا يتكلمَ في تعبيرِ الأحلامِ وغيرِها مما يؤثِّرُ به علىٰ العامَّة.

وقد أثارت هذه المنْزِلةُ حفيظةَ العلماء؛ لأنَّ ما قرَّرَه مِن مسائلَ في أصولِ الدين تُغايِرُ ما يألَفون، وما يَتَّبِعون، وقد أثارَ أيضًا حفيظةَ الصوفية، سواءٌ أكانوا معتدلين أم كانوا مُغالين؛ لأنه أخذ يَطعنُ في آراءِ محيي الدين بن عربي الذي قد اتخذه أكثرُ الصوفية إمامًا يُتَّبَع.

ومع هذه الإثارةِ بالفكرِ والرأي، ومع الحسدِ الشديدِ لمنْزلته كان في لسانه حدَّةٌ كما ذُكِر، فكان يجري علىٰ لسانه ألفاظٌ عنيفة يوجِّهها لِمَنْ يُخالِفونه، وفيهم علماءُ ذوو أسنان، ولم يكن هو في مثل سنِّهم، ومنهم مَنْ كان يُعَدُّ مِنْ شيوخِه فكان يَكْبُرُ ذلك عليهم وعلىٰ تلاميذهم، ومَنِ اتَّصلوا بهم، وله فيهم حسنُ ظنٍّ وتقدير.

٩- اتَّجَه العلماءُ بسببِ كلِّ هذا يَشْكون ابنَ تيمية إلىٰ الأمراءِ في مصر، ويذكرونه بما يَكْرَه، ومنهم مَنْ لم يعرف فضلَه كاملًا؛ إذ كان هو بالشام، وكان التدبيرُ الخفيّ، وذكرُه بالمروق والخروجِ علىٰ عقيدةِ الأشعريِّ التي كانت مُقدَّسة عندهم بمصر. وكان السلطانُ الناصرُ الذي كان يُبالِغُ في تقديره ويَعرفُ له فضلَه قد أخذ سلطانُه يَضْعُف، وخرجَ عليه القُوَّاد، واستهانوا بأوامرِه.

وبمقدارِ ضعفِ السلطان كانت قوةُ التدبيرِ وأثرُ القولِ في شأنِ ابن تيمية، وقد عُقِدَت المجالسُ المؤلَّفةُ مِنَ الحاقدين والحاسدين والناقمين، ثم المخالفين الذين لا يعتقدون فيه، وكانت تلك المجالسُ تنظرُ في أمرِه، والطريقِ للنَّيْلِ منه، ومنعِهِ مِنَ الاسترسالِ في دعوته.

وانتهىٰ الأمرُ بدعوته فجاء إلىٰ مصر، وكان الطلبُ بكتابٍ ظاهرُه الخير، فكان في عباراتِ الكتاب: «إنا كنا سَمِعنا أنه يُعْقَدُ مجلسٌ للشيخ تقيِّ الدين ابن تيمية، وقد بَلَغَنا ما عُقِدَ له مِنَ المجالس، وأنه علىٰ مذهبِ السلف، وإنما أرَدنا بذلك براءةَ ساحتِه مما نُسِبَ إليه». ثم أَعْقَبَ ذلك الكتابَ الرقيقَ كتابٌ آخَر في طلبِ أنْ يتوجَّه علىٰ البريدِ إلىٰ مصر.

كان الشيخُ ﷺ يواجِهُ الأمور، ولا يختفي مِنْ ملاقاتها؛ ولذلك اعتزم المجيءَ إلىٰ مصر، ولكنَّ نائبَ السلطان في دمشق قد أوتِيَ

علمًا بما يُبَيِّتُ له في مصر، فنهاه عن الذهاب، ولكنه أبَىٰ؛ لأنَّ في ذهابه إلىٰ مصر نفعًا للعامَّةِ ونشرًا لآرائه، ولو نالَه في ذلك الأذىٰ الشديد.

❁ المحنة الأولى:

١٠- وصلَ الشيخُ إلىٰ مصر في سنة ٧٠٥ من الهجرة، وكان يعقد المجالسَ لدروسِه في الطريق، وبينما هو يَعِظُ ويُدَرِّسُ كان خصومه في مصر يستعدُّون لاستقباله بتدبيرِ ما يُنْزِلونه به، فلمَّا جاء إليها التقوا به في مجلسٍ عُقِدَ بالقلعة، اجتمع فيه القضاةُ وأكابرُ الدولة، وأرادَ أنْ يَتكَلَّم، فلم يُمَكِّنوه لِما يَعْرِفون مِنْ قوةِ بيانه، وموقعِ كلامه، وجابَهوه بالاتهام، وتولَّىٰ الادعاء عليه زينُ الدين بن مخلوف قاضي المالكية، فادَّعىٰ عليه أنه يقول: «إنَّ الله فوق العرش حقيقة»، وأنه يتكلم بحرفٍ وصوت، فأخذَ الشيخُ في حمدِ الله والثناءِ عليه، فقيلَ له: أَجِبْ ولا تَخْطُب؛ فعلمَ أنها المُحاكَمة، وليست المناظرة. فقال الشيخ: مَنِ الحاكمُ في أمره؟ فقيل له: القاضي المالكي، فقال له الشيخ: كيف تحكم فيَّ وأنت خَصْمي؟ فغضب القاضي غضبًا شديدًا وانزعج، وحَبَسَ الشيخَ رحمه الله.

وآلَ ابن تيمية إلىٰ الحبس، وشاركه في محبسه أخواه شرف الدين ومجد الدين اللذان حَضَرا معه إلىٰ مصر.

وكان ابن تيمية مُحِقًّا في امتناعه عن أنْ يكونَ القاضي المالكيُّ حَكَمَه، فقد كان فيه غلظةٌ وقسوة؛ إذ قد حَكَمَ مِنْ قبل بالإعدام علىٰ عالِم اتُّهِمَ بأنه يستهزئُ بالآياتِ المُحْكَماتِ مِنَ القرآن، ويُناقِضُ المشتبهات بعضها ببعض، مع أنَّ البينات لم تكن كافية، وكان له فضلٌ ظاهرٌ وفضيلةٌ واضحة، ورأيُ العلماء فيه حَسَن، حتىٰ إنه لَمَّا استغاثَ بابن دقيق العيد، شيخِ علماءِ الحديثِ في عصره، قال له: ما تعرف مني؟ قال: أعرف منك الفضيلة. ولكنَّ حُكمَه كان إلىٰ القاضي زين الدين المذكور، ولم تَشفَعْ تلك الشهادةُ الطيِّبة، ولم يُسْتَتَبْ، فلم يُخَفَّفْ عنه حُكمُ الإعدام.

فكان الشيخُ أريبًا إذ لم يقبل أنْ يكونَ هذا القاضي قاضيَه، وفوق ذلك هو يُناقِضُه في تفكيرِه، وقد عاجَلَه بالاتهام، وليس مِنَ المعقولِ أنْ يَتَّهِمَ الشخصُ ويقضي، لأنَّ الاتهامَ والقضاءَ عملان مُتباينان، فالمُتَّهِمُ يَسردُ الأدلةَ المسوغةَ للعقاب ويُقيمُ الأدلةَ عليها، ومَن اتُّهِمَ يُقَدِّم الأدلةَ المُنافيةَ المُبطِلةَ للاتهام إنْ كانت، والقاضي يوازِن بين الحجَّتين. ثم إنَّ زين الدين أدلىٰ بالاتهام، ومنع المُتَّهَمَ مِنْ أنْ يُدلِيَ بحُجَّتِه.

نزل الشيخُ السجنَ في رمضان سنة ٧٠٥، وصَحِبَ نزولَه أذًىٰ شديدٌ نزل بالحنابلة في مصر، ولم يستطع القاضي الحنبليُّ الذي كان القاضي الرابع في مجلسِ القضاة الذي يُمثِّلُ فيه المذاهب الأربعة، أنْ يدافع عن ابن تيمية، ولا عن الحنابلة؛ فقد كان ضعيفًا، وقد قال

فيه ابن كثير: «حصل للحنابلة بالديار المصرية إهانةٌ عظيمة، ومِن ذلك أنَّ قاضيهم كان قليل العلم مُزجىٰ البضاعة؛ فلذلك نال أصحابه ما نالهم، وصارت حالُهم حالهم».

✿ ✿ ✿

١١- مَكثَ الشيخُ في غياهب السجن سنة، وفي نهايتها في ليلة عيد الفطر تحرَّكت ضمائر لإخراجه، فجمع حاكمُ القاهرة القضاة الثلاثة؛ الحنفي، والمالكي، والشافعي، وبعض الفقهاء وتكلَّم معهم في إخراج الشيخ من السجن وإطلاق حرِّيته، فقد وجد ذلك الأخيرُ أنَّ بقاء الشيخ في السجن لا يتفق مع الدِّين ولا العدل ولا الخلق، وهو الذي قاد الجموع، وحرَّك الجيوش، وتقدَّم للموت، وكان روح المقاومة العنيفة التي انتهت بالانتصار علىٰ التتار.

ومع أنَّ الفقهاء والقضاة لم تكن عندهم تلك الأريحية الكريمة التي كان عليها ذلك الأمير، لم يقاوموا أمر إخراجه؛ لأنَّ من يكون علىٰ شاكلتهم يعملون علىٰ إرضاء الأمراء، أو علىٰ الأقل لا يغاضبونهم، ولكن بعضهم قيَّد الموافقة بشروطٍ اشترطها، منها أنْ يُعلن الشيخ رجوعه عن بعض ما أعلن من آراء في أصول الدين، فوافقوا علىٰ ذلك، وأرسلوا إلىٰ الشيخ ليحضر فامتنع؛ لأنه يعلم أنهم ليسوا طلَّاب حقيقة، ولا حُجة، وأنهم يريدون أنْ يفرضوا عليه رأيًا لم يُقدِّموا عليه في نظره دليلًا وتكرَّرت الرسالةُ إليه حتىٰ بلغت ستَّ مرات، فتفرَّقوا، ويقول ابن كثير: «تفرَّقوا غيرَ مأجورين».

وفي الوقت الذي كان فيه الشيخُ في غيابةِ السجن كان أصحابه بالشام في ألم، ولعلَّ آلام أهل الشام هي التي كانت تجعل أمراء مصر يفكرون في إخراجه، والعلماء يشترطون ما يعلمون أنه لا يمكن أنْ يجيبه.

وبعد المحاولة التي سبقت جاءت محاولة أخرىٰ، وهي إحضار أخويه ليتكلما باسمه، فجاءا إلىٰ مجلس القضاة، وأخذ يتناقش شرف الدين أخوه مع القاضي المالكي زين الدين بن مخلوف، حتىٰ ظهر عليه أخو الشيخ بالحجّة، ويقول في ذلك ابن كثير[1]: «ظهر شرف الدين بالحجة علىٰ القاضي المالكي بالنقل والدليل والمعرفة، وخطأه في مواضع ادعىٰ فيها دعاوىٰ باطلة، وكان الكلام في مسألة العرش، ومسألة الكلام، ومسألة النزول».

كانت هذه المناقشة ـ والشيخ في مجلسه لا يريم[2] ـ سببًا في أنْ خرج الشيخ من محبسه في ٢٣ من ربيع الأول سنة ٧٠٧، بعد أنْ مكث في السجن نحو ثمانية عشر شهرًا.

(١) البداية والنهاية ١٨/ ٦٧.

(٢) يريم: يبرح.

❁ صفح جميل:

١٢- خرج الشيخ من السجن، وانصرف إلىٰ الدرس، فأخذ يدرِّس للعامة والخاصة في المساجد، ويخطب علىٰ المنابر، ومكث علىٰ ذلك ستة أشهر حتىٰ كان له في مصر محبون ومريدون كما كان له في الشام.

وإنَّ الذي يتجه إليه النظر أمران:

الأمر الأول: الصفح الجميل عمَّن آذوه وألقوه في السجن، وقد سجَّل ذلك في كتاب أرسله إلىٰ دمشق جاء فيه: «تعلمون -رضي الله عنكم- أني لا أُحبُّ أن يؤذَىٰ من عموم المسلمين - فضلًا عن أصحابنا - بشيءٍ أصلًا، لا ظاهرًا ولا باطنًا، ولا عندي عتبٌ علىٰ أحدٍ منهم ولا لومٌ أصلًا، بل لهم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف ما كان، كلٌّ بحسبه، ولا يخلو الرجل، إمَّا أن يكون مجتهدًا، أو مخطئًا، أو مذنبًا؛ فالأول مأجورٌ مشكور، والثاني - مع أجرٍ علىٰ الاجتهاد- معفوٌّ عنه، والثالث فالله يغفر لنا وله ولسائر المؤمنين ... لا أُحبُّ أنْ يُنتَصر ممن أُخذ بسبب كذبِه عليَّ أو ظلمه أو عدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد لكلّ مؤمن من الخير ما أريده لنفسي، والذين ظلموا أو كذبوا هم في حلٍّ من جهتي».

الأمر الثاني: أنه بمجرد أنْ خرج من السجن أرادت أمُّه أنْ تكتحل عينها برؤيته، ولكنه يريد أنْ يؤدي واجبه في مصر كما أداه في الشام. وأن تكون عينُ أمِّه قارَّة مطمئنة، فيكتب إليها كتابًا جاءت فيه

العبارات الآتية:

«من أحمد بن تيمية إلىٰ الوالدة السعيدة، أقرَّ الله عينيها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من إمائه وخدمِه... نشكر الله علىٰ نعمه، ونسأله المزيد من فضله، ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلت عن التعداد. تعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد، إنما هو لأمور ضرورية، متىٰ أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه. وأنتم والله لو اطلعتم علىٰ باطن الأمور فإنكم والله لا تختارون الساعة إلا ذلك . . . والمطلوب كثرة الدعاء بالخير، فإن الله تعالىٰ يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب، وقال النبي ﷺ: «**من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما يقسم الله له، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارته الله وسخطه بما يقسم الله**». والتاجر يكون مسافرًا فيخاف ضياع ماله، فيحتاج أن يقيم حتىٰ يستوفيه، وما نحن فيه أمر يجل عن الوصف، ولا حول ولا قوة إلا بالله. والسلام عليكم ورحمة الله كثيرًا كثيرًا، وعلىٰ سائر من في البيت من الكبار والصغار، والأهل والأصحاب، واحدًا واحدًا، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم»[1].

(١) العقود الدرية ص ٢٧٣- ٢٧٥.

❁ المحنة الثانية:

١٣- كانت إقامة ابن تيمية مهما تطل في مصر علىٰ نية العودة إلىٰ الشام ولكنَّ الله تعالىٰ اختار له إقامة أطول مما كان يقدِّر، ولم يكن في حُسبانه، واختبره الله تعالىٰ بامتحانٍ جديد.

وذلك الامتحان كان سببه في هذه المرة من غير الفقهاء وعلماء الكلام، بل كان من الصوفية الذين كان لهم منزلة كبيرة، فقد بُنِيَ لهم من قبل صلاح الدين الأيوبي «خانقاه» وهو مكان يختلون فيه للعبادة، وبنىٰ لهم من بعد ذلك الناصر بن قلاوون خانقاه أخرىٰ سنة ٧٢٣، وكان لها أثرٌ في حياة ابن تيمية كما سنبين.

كان بعض الصوفيين في مصر يأخذون بمذهب وحدة الوجود الذي نادىٰ به محيي الدين بن عربي في مثل قوله:

يا خالق الأشياء في نفسه أنت لما تخلقه جامع

تخلق ما ينتهي كونه فيك فأنت الضيُّقُ والواسع

وكان ممن تأثر بهذا الرأي ابن الفارض الشاعر المصري المتوفي سنة ٦٣٢. وقد كان بعض الصوفية في مصر يقولون إنهم إذا وصلوا إلىٰ حالٍ من التربية النفسية والتهذيب الروحي يتصلون بالذات العلية ويعلون عن التكليف.

وما كان هذا ليُرضي ابن تيمية، كما لم يُرضه من قبل في الشام بعض الشعبذة التي كان يقوم بها بعض الرِّفاعيين من الصوفية.

فتصدىٰ لمهاجمة هذه الآراء، وفي سبيل مناهضتها لا بد أنْ يُفنِّد آراء محيي الدين بن عربي، فهاجمها، ولم تكن ثمة محاجزة بينه وبين أنْ يهاجم ابن عربي نفسه، ففعل بعقلٍ مفكِّر، ولسان معبر، وقلب جريء.

تقدَّم ابن عطاء الله السكندري صاحب كتاب الحكم، وهو صوفي له مقامه عند الصوفية، ومن أتباع ابن عربي بالشكوىٰ، وله مقامه عند العامة، وذهب الصوفية إلىٰ القلعة يشكون مجتمعين، فأمر السلطان أنْ يُعقَد مجلس بدار العدل، وحضر ابن تيمية يشقُّ الجموع ثابت الجنان، مع أنه قد قيل له: إنَّ الناس قد جمعوا لك، فقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣]، وتناقش مع الخصوم يصدع بالحُجة الظاهرة، والبينات القاهرة، وينطق بالمفهوم من غير تعقيد ولا تلبيس؛ فانتصر.

وتكاثرت من بعد ذلك اجتماعات الصوفية، والشيخ لا يني عن مجابهتهم، ووجدوا ما يثير حوله الرَّيب؛ فإنه كان يرىٰ أنه لا يُستغاث إلَّا بالله، فلا يُستغاث بأحدٍ من عباده، ولو كان نبيَّ الرحمة محمدًا ﷺ، وقد قيل هذا في مناقشة مع ابن عطاء الله السكندري، فعجّل بعض الحاضرين بقوله: ليس في هذا شيء، وقال كبير القضاة: إنَّ هذا قلة أدب، ولم يقل إنه كُفر.

١٤- ضاقت الدولة ذرعًا، وكثرت المجادلات، ولم تجد السبيل لإسكاتها إلَّا بإسكات ذلك الضيف الذي أثارها، فخيَّروه بين أمورٍ ثلاثة: إمَّا أنْ يذهب إلىٰ الإسكندرية، وإمَّا أنْ يذهب إلىٰ دمشق موطنه، وإمَّا الحبس، فاختار الحبس؛ لأنه كان مقيَّدًا عند الذهاب إلىٰ دمشق أو الإسكندرية ألا يُعلن ما يرىٰ، فقال: «السجن أحبُّ إليَّ»، فارتضاه دون تقييد الفكر واللسان، ولأنه رأىٰ أنَّ الحرية التي تملأ نفس العالم ليست هي حرية الانتقال من مكان إلىٰ مكان، وإنما هي حرية الفكر وجولاته، ونشر تفكيره وآرائه، وأن الحر حقًّا هو الذي يفهم حرية رأيه وفكره قبل أنْ يفهم حرية جسمه، وأن تنقله من مكانٍ إلىٰ مكان من غير أنْ يُدلي بآرائه، يكون فيه كبتٌ عقليٌّ ونفسيٌّ له، ولا يُحسُّ بذلك في داخل السجن.

ولكنَّ تلاميذه أرادوه علىٰ أنْ يختار دمشق، فركب خيل البريد في الثامن عشر من شوال سنة ٧٠٧، وما إن غذَّ في السير حتىٰ ألحقوا به من ردَّه، وقالوا: إنَّ الدولة لا ترضىٰ إلَّا بالحبس، وكأنهم شعروا أنه إذا ذهب إلىٰ دمشق، فسيكون بين أصحابه، ويردُّ إليهم شروطهم التي أجبروه عليها.

أُعيد الشيخ إلىٰ المحاكمة، وكان في القضاة في هذه المرة من يقدره حق قدره، إذ قد رأوه ورأوا إخلاصه وإيمانه، ومهما تكن في آرائه من خروج عن المألوف المعروف فقد كان شخصه مثالًا للتُّقىٰ، وللتقوىٰ أثرها في النفوس، فقد قرروا أنه ليس عليه شيءٌ

يسوِّغُ الاتهام، وكان بعضهم يُعارض في الحبس وتجادلوا في ذلك، فأنقذ ابن تيمية الموقف، وقال: أنا أمضي إلىٰ الحبس، فقال نور الدين الزَّواوي الذي كان يُعارض في حبسه: يكون في موضعٍ يصلح له. فقيل له: إنَّ الدولة لا ترضىٰ إلَّا بما يُسمىٰ الحبس[1].

أُرسل بعد هذا إلىٰ حبس القضاة، وأُذن له بأنْ يكون عنده من يخدمه.

كانت المعركة التي أدت إلىٰ ذلك الحبس بين ابن تيمية والصوفية، ولم تكن بينه وبين الفقهاء، ولعلَّ القضاة قد نظروا إليه في هذه المرة نظرة تقدير؛ لأنهم لا يرون وحدة الوجود، وهي أشدُّ بُعدًا عن المألوف من كلِّ آراء ابن تيمية، فهو في نظرهم كان مدافعًا عن الإسلام، ولم يكن مهاجمًا، فكان العطف عليه، وذلك مع قوة بيانه.

ولقد كان الحبس غير مانع تلاميذه من أنْ يغدوا عليه ويروحوا، ثُمَّ لم يلبث إلَّا قليلًا حتىٰ خرج من محبسه بقرارٍ من مجلس للقضاة والفقهاء عُقد بالمدرسة الصالحية.

وبعد أنْ خرج أكبَّ الناس علىٰ مجلس العلم الذي يعقده، ولا نرىٰ أنَّ هذه كانت محنة، وقد كان النصر فيها له علىٰ الصوفية.

(١) هذه المجاوبة دونها تلميذه ابن كثير في الجزء الرابع عشر ص٤٦ [١٨/ ٧٤-٧٥]، ونقلها صاحب العقود الدرية عن البرزالي ص٢٧٠ [ص٣٣٣]. (ز)

١٥- وإنما المعركة الحقيقية كانت بعد ذلك عندما عزل السلطان ناصر قلاوون نفسه، وتولَّىٰ الأمر من بعد ذلك الملك المظفَّر بيبرس الجاشنكير، وكان شيخ بيبرس هذا نصرًا المنبجيَّ؛ من أتباع ابن عربي في آرائه ومنحاه، فقامت المعركة الشديدة، لتحكم نصرٍ المنبجي في تفكير بيبرس، ولأن ابن تيمية يُنظر إليه علىٰ أنه من أنصار الناصر. ودبَّر السلطان الجديد وشيخه الأمر، فوجدا أنَّ أنجح السُّبُل للتخلص منه أنْ يُنفىٰ إلىٰ الإسكندرية؛ إذ قد صار له أتباع في القاهرة، والفقهاء يُناصرونه، وليس له في الإسكندرية وليٌّ ولا نصير، وقد رجوا أنْ يُقتل فيها غيلة فيرتاحوا.

ولكنَّ أخبار فضله سبقته إلىٰ الإسكندرية، فالعلم نورٌ يصل شعاعه إلىٰ كلِّ مكانٍ ما لم تحجبه الظُّلمات. وكان سفره إلىٰ الإسكندرية في الليلة الأخيرة من شهر صفر سنة ٧٠٩، وأخذ يعقد المجالس للدرس والوعظ والتوجيه، ومكث علىٰ ذلك سبعة أشهر، أي إلىٰ الوقت الذي عاد فيه الناصر قلاوون إلىٰ الحكم بعد الاعتزال.

وفي هذه الأشهر السبعة، وجد خصمًا يناضله، فقد اتفق أنْ وجد في الإسكندرية فوجد فرقةً من الصوفية تُسمَّىٰ السبعينية، تُنسب لرجل صوفي اسمه ابن سبعين، وينهج منهاجًا يجمع بين الفلسفة والتصوف، فقد كان هو فيلسوفًا صوفيًّا.

١٦- عاد الشيخ إلىٰ القاهرة مكرَّمًا بعد أنْ جلس الناصر علىٰ عرش مصر؛ إذ دعاه هذا إليها، فوصل في اليوم الثامن من شوال سنة ٧٠٩، واتخذ مقرَّه علىٰ مقربة من المشهد الحسيني، وانصرف إلىٰ العلم انصرافًا مطلقًا، وجاء إليه الذين أساؤوا إليه يعتذرون، فقال في كلمةٍ لا استثناء فيها: «من آذاني فهو في حلٍّ من جهتي».

وهنا نجد من الواجب علينا أنْ نذكر موقفًا كريمًا لابن تيمية، ذلك أنَّ الناصر لما استقرَّ به الأمر أراد أنْ ينتقم من العلماء والقضاة الذين مالؤوا خصمه عليه، وهم أنفسهم الذين حكموا عليه بالحبس في المحنة الأولىٰ، وقد مكث ثمانية عشر شهرًا بسببهم في السجن، فاستفتىٰ في ذلك ابن تيمية، فأفتىٰ الإمام التقيُّ بأنَّ دماءهم حرامٌ عليه، وأنه لا يحلُّ إنزال الأذىٰ بهم، فقال له السلطان: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مرارًا، فقال الشيخ الكريم: «من آذاني فهو في حلٍّ، ومن آذىٰ الله ورسوله فالله ينتقم منه، ولا أنتصر لنفسي». ولم يكتفِ الشيخ الطيب بذلك، بل طالب بالعفو عنهم، وأخذ يُخاطبه في العفو، ويقول له: «إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم»، وما زال به حتىٰ عفا عنهم.

فعل ابن تيمية ذلك وفيهم ابن مخلوف الذي كان شديد الوطأة علىٰ ابن تيمية، والذي منعه من الدفاع عن نفسه، وألقىٰ به في غيابة السجن من غير مُحاكمة، ولم يسع ذلك القاضي إلَّا أنْ ينطق بالثناء علىٰ ابن تيمية، ويقول: «ما رأينا مثل ابن تيمية، حرَّضنا عليه فلم نقدر، وقدر علينا فصفح وحاجَّ عنا».

١٧- في هذه المرة من المجيء إلىٰ القاهرة نوىٰ الإقامة بها، والاستقرار فيها، ولذا أرسل يطلب بعض كتبه، وانصرف إلىٰ الدرس والإفتاء والوعظ والإرشاد، ولم يحاول أحد من العلماء أن ينال من علمه علنًا، وكذلك كبار الصوفية لم يستطيعوا أن يطعنوا في آرائه؛ لا لأنهم يؤمنون بقوله، ولا لأنهم يخشون الله، ولكن لأنهم يخشون السلطان.

ولذلك أخذ خصومه من الفقهاء والصوفية يكيدون بطريق آخر، وهو تحريض العامة عليه، فحرضوهم وحرشوهم به، ولكنهم نسوا أنه قد اكتسب ببلاغته وقوة حجته وشخصيته أنصارًا أكثر من أنصارهم، وقد حدث له حادثان:

أحدهما: أنه في الرابع من رجب سنة ٧١١ قد انفرد به جماعة بتحريض خصومه، فامتدت أيديهم الأثيمة إليه بالضرب، فتجمع أهالي الحسينية ليثأروا للشيخ، ولكنهم ألحوا عليه في أن يأذن لهم، وأكثروا من القول، فقال لهم: «إما أن يكون الحق لي، أو لكم، أو لله؛ فإن كان الحق لي فهم في حلّ منه، وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني فافعلوا ما شئتم، وإن كان لله الحق، فالله يأخذ حقه إن شاء الله».

أنه في هذا الشهر نفسه قد اعتدي عليه بالقول المقذع، ولكنه الحادث الثاني: في هذه المرة لم يكن من الجهال الأغمار، بل كان من بعض الفقهاء أساء إليه بهذا القول، ثم اعتذر إليه، ولعل اعتذاره كان سببه الخوف من السلطان لمكانته عنده، ولكن الشيخ علىٰ أي حال صفح وقال: «لا أنتصر لنفسي».

وفي هذه المدة التي أقام فيها بالقاهرة كان يشير علىٰ السلطان بما يرىٰ فيه، ومن ذلك أنه كثرت الرشوة في الولاية وغيرها، فما زال ابن تيمية بالناصر حتىٰ كتب كتابًا يشدد فيه النكير علىٰ ذلك، بكتاب نشره جاء فيه: «لا يولىٰ أحد بمال ولا برشوة؛ فإن ذلك يفضي إلىٰ ولاية غير الأهل». وكانت أمور القصاص فوضىٰ، فشاعت جريمة الأخذ بالثأر؛ فشدد السلطان في تتبع ذلك، وعالجه بأن يكون القصاص عاجلًا، وألا يكون إلا بحكم الشرع الشريف.

❁ عودة الشيخ إلى الشام:

١٨- أدىٰ الشيخ رسالة العلم والتقوىٰ في مصر فوعظ وعلم وجاهد في سبيل الحق، وتحمل الأذىٰ، وكان حقًّا عليه أن يعود إلىٰ أهله وعشيرته، والمغاني التي نشأ فيها وترعرع، ولكنه لم يعد إلا لداعي الجهاد، ذلك أنه في شوال سنة ٧١٢ قد أعد الناصر جيشًا كثيفًا، لملاقاة التتار، إذ ترامىٰ إليه أنهم قصدوا إلىٰ الشام ليزعجوا الآمنين، ويعيثوا في الأرض مفسدين، وأراد أن يصحبه ابن تيمية في هذا الجهاد، وما كان الشيخ ليتلكأ عن الجهاد، فعاد إلىٰ دمشق حاملًا السيف، يحمله اليوم وهو كهل تجاوز الخمسين، بعد أن حمله شابًّا في الأربعين.

وصل الشيخ إلىٰ دمشق في مستهل ذي القعدة سنة ٧١٢، وكفىٰ الله المؤمنين القتال، فقد ترامت الأخبار بأن التتار رجعوا علىٰ أدبارهم ناكصين، لا يلوون علىٰ شيء.

١٩- أقام الشيخ من بعد ذلك بالشام واستقر به النوىٰ، ولقد قال ابن كثير[١] في أحواله بعد هذا الاستقرار: «ثم إن الشيخ بعد وصوله إلىٰ دمشق واستقراره بها لم يزل ملازمًا الاشتغال في سائر العلوم، ونشر العلم وتصنيف الكتب، وإفتاء الناس بالكلام، والكتابة المطولة، والاجتهاد في الأحكام الشرعية، ففي بعض الأحكام يفتي بما أدىٰ إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يفتي بخلافهم، أو بخلاف المشهور في مذاهبهم، وله اختيارات كثيرة ومجلدات عدة، أفتىٰ فيها بما أدىٰ إليه اجتهاده، واستدل علىٰ ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف».

ونلاحظ أنه في الفترة الأولىٰ من حياته بالشام ومصر كان اتجاهه إلىٰ بيان العقيدة التي كان يراها سليمة، وآراؤه في الفقه كانت مستندة إلىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ولا يخرج منها إلا في القليل النادر.

---

(١) البداية والنهاية: ١٨/ ١٢٥.

أما في هذه الفترة، فقد كانت عنايته الكبرىٰ بالفروع، فقد أقبل علىٰ الفروع يفحصها بعقله السلفي، وفكره المستقيم، ووصل فيها إلىٰ نتائج يخالف فيها الأئمة الأربعة، أو يوافق المشهور من مذاهبهم أو غير المشهور، وما يختاره إنما يكون عن بينة وعن دليل من الكتاب أو السنة، وثروته فيها كانت مثرية عظيمة، لا يعوزه النص إذا احتاج، كما لا يعوزه القياس الفقهي المستقيم الذي يؤيد به النص، أو يؤيد به ما ينتهي إليه إن لم يكن نص.

وليس معنىٰ تقسيم حياته إلىٰ هاتين الفترتين أنه في الأولىٰ لم يكن معنيًا بالفقه، وفي الثانية عُنِي به، بل نقول إن عنايته بالفقه كانت في كل أدوار حياته، ولكن التقسيم هو لمقدار نسبة العناية، فقد استغرق الفقه في الثانية أكثر أدوار حياته، وخرج بالفقه من نطاق الدراسة الخاصة بمذاهب الأمصار المعروفة إلىٰ دراسة أوسع أفقًا، إذ عُنِي بأمرين: دراسة فقه القرآن والسنة مستمدًّا من الينابيع الأصلية، والثانية: دراسة آراء أئمة آل البيت، ومع كراهته لبعض الطوائف التي كانت تنتمي إلىٰ الشيعة لم يمتنع عن أن يجوس خلال الفقه الشيعي الذي اشتمل علىٰ بعض آراء أئمة آل البيت أو أكثرهم.

وهو في هذه الدراسة كان يعتبر نفسه حنبليًّا، أو علىٰ الأقل ما أخرجه أتباعه عن أنه حنبلي مع هذه الاختيارات الكثيرة، ومع اتجاهه إلىٰ الكتاب والسنة من غير توسط أحد، فقد استمر معجبًا

بفقه الإمام أحمد، ولكنه لم يكن إعجاب المتعصب، بل إعجاب الفاهم المدرك المرجح، ويقول في مذهب الإمام أحمد:

«أحمد كان أعلم من غيره بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولهذا لا يكاد يوجد له قول يخالف نصًّا، كما يوجد لغيره، ولا يوجد له قول ضعيف إلا وفي مذهبه في الغالب قول يوافق القول الأقوىٰ، وأكثر مفاريده التي يختلف فيها مذهبه عن غيره يكون قوله راجحًا، كقوله بقبول شهادة أهل الذمة علىٰ المسلمين عند الحاجة، كالوصية في السفر، إلىٰ غير ذلك»[1].

ونراه في هذا يرجح فقه ابن حنبل لا لشخصه، بل لاتصاله بالكتاب والسنة، وما كان مع ذلك متعصبًا له، بل اختار من غيره في كثير من المسائل. ولقد كان يعتبر التعصب نابعًا من الهوىٰ، لا من الحجة والبرهان، فيقول:

«من تعصب لواحد من الأئمة بعينه فقد أشبه أهل الأهواء، سواء أكان التعصب لمالك أم لأبي حنيفة أم لأحمد، ثم غاية المتعصب لواحد منهم أن يكون جاهلًا بقدره في العلم والدين، وبقدر الآخرين، فيكون جاهلًا ظالمًا، والله يأمر بالعلم والعدل، وينهىٰ عن الجهل والظلم. قال تعالىٰ: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا

(١) مجموع الفتاوىٰ: ٢٠/ ٢٢٩.

جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢]، وهذا أبو يوسف ومحمد، أتبع الناس لأبي حنيفة، وأعلمهم بقوله، وهما خالفاه في مسائل لا تكاد تحصىٰ، لما تبين لهما من السنة والحجة ما أوجب عليهما عدم اتباعه فيها، وهما مع ذلك يعظمانه»[١].

٢٠- خلع إذن نير التعصب واتجه إلىٰ دراسة حرة، لا تتقيد بآراء الأئمة الأربعة، وقد وصل في هذه الدراسة الحرة إلىٰ نتائج في بعض مسائل خطيرة:

(أ) أنه قد رأىٰ أن الطلاق قد صار يمينًا يُحلف به، كما يحلف بالله، بيد أنه إن حنث في يمين الله كفَّر بعتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو صيام ثلاثة أيام إذا لم يجد واحدًا من الثلاثة. أما إذا حنث في يمين الطلاق طلقت امرأته، وخرب بيته، وتقطعت تلك العلاقة المقدسة، وهي الزواج. هالته هذه النتيجة فبحث عن أصل لها في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، كما أنه لم يجد في أقوال السلف ما يدل علىٰ ذلك، فلم يجد ما يبرر قطع العلاقة الزوجية، والرجل ما قصد إيقاع الطلاق، ولا أراده، فأفتىٰ بأن الحلف بالطلاق لا يقع به طلاق، واستأنس لتفكيره بأقوال أُثِرت عن أئمة آل البيت، فأفتىٰ بعدم وقوع الطلاق.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ: ٢٢/ ٢٥٢.

فلما كان ذلك الإفتاء استنكره الفقهاء، وكان ذلك في سنة ٧١٨.

(ب) ومنها أنه وجد أن المأثور الذي يتفق مع نص القرآن الكريم أن الطلاق الثلاث بلفظ الثلاث لا يقع إلا واحدة، ولا يمكن أن يقع ثلاثًا، لأن ذلك ليس إلا مرة واحدة، والله تعالىٰ يقول: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة:٢٢٩]، وكثيرون من التابعين علىٰ ذلك الرأي، وقد استأنس لرأيه هذا أيضًا بآثار رويت عن أئمة آل البيت، وهو بذلك خالف الأئمة الأربعة مجتمعين.

(جـ) ومنها أن الطلاق الذي يقع في الحيض لا يعتبر، واستشهد لذلك بأن النبي ﷺ أمر عبد الله بن عمر أن يعود لامرأته وقد طلقها في حال الحيض، واستأنس أيضًا في هذا برأي مأثور عن أئمة آل البيت.

أفتىٰ بهذه الأمور وبغيرها، وخالف الأئمة الأربعة، فنصحه بعض العلماء بالسكوت عن الإفتاء بها، فسكت حينًا لتردده، ثم عاد إلىٰ الإفتاء.

جاء بعد ذلك منع السلطان له من الإفتاء بهذه المسائل التي يخالف فيها الأئمة الأربعة، فأصر علىٰ الإفتاء، لأنه لا يقبل الدنية في دينه وفيما يعتقد أنه الدين، ولأنه استوثق مما يقول.

❁ المحنة الثالثة:

٢١- استمر الشيخ على الإفتاء في مسائل الطلاق، وترامى إلى السلطان خبر عودته، ومع أن السلطان هو صديق ابن تيمية، وهو الذي لم يرتض أن يبقى في الحبس يومًا واحدًا بعد عودته إلى الحكم، لم يقبل أن يرد أمره، وقد أصدرها جهرًا من غير إخفاء، وضمير السلطان لم يرتض قولًا يخالف الأئمة الأربعة، فإذا كان ابن تيمية معظمًا عنده، فإن الأئمة الأربعة أشد تعظيمًا.

ولذلك أرسل في التاسع عشر من رمضان سنة ٧١٩ كتابًا فيه فصل خاص بالشيخ يؤكد فيه المنع، وقرئ عليه الكتاب في جمع من القضاة والفقهاء والمفتين، وعوتب على امتناعه، وافترق المجلس من غير أن يعطي الشيخ عهدًا بالامتناع عن الإفتاء، ولذا استمر. وقد تكرر الإرسال، وتكرر العتب، وما كان للسلطان أن يغضي من بعد ذلك، وإن أغضى، فإن القضاة والمفتين لن يغضوا، وهم يرون فيما يفتي به الشيخ مخالفة لإجماع الأئمة الأربعة، فيكون ضلالًا بينًا.

ولهذا انعقد مجلس بدار الحكم بحضرة نائب السلطنة حضره القضاة والفقهاء والمفتون من المذاهب الأربعة، وحضر الشيخ وعاتبوه ورجوه ألا يعود إلى الإفتاء في هذه المسائل، وكانوا حريصين على عتابه دون جداله، ولما تكرر العتب والرجاء من غير أن يمتنع قرروا حبسه في القلعة بدمشق، واستمر محبوسًا خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا تبتدئ من يوم ٢٢ من رجب سنة ٧٢٠، وكان الإفراج عنه في العاشر من المحرم سنة ٧٢١.

وقد عاد الشيخ بعد ذلك إلىٰ درسه حرًّا طليقًا، فأخذ يفتي في هذه المسائل وغيرها، وبتكرار ذلك منه ألفوه وإن لم يرضوه. واستمر يبحث ويكتب ويصنف، وتعد هذه الفترة من حياته التي تبتدئ من سنة ٧١٢ هي الفترة التي أنتج فيها ذلك الإنتاج الفقهي العظيم. وإن كان يدرس مع ذلك العقائد، وموقف الصوفية، وما يظهرونه من بدع، ولكن الحظ الأكبر كان للفقه.

❁ المحنة الأخيرة:

٢٢- استمر الشيخ في دروسه، وقد أخذ يراجع كتبه ورسائله، سواء أكانت في العقائد، أم كانت في السياسة، أم كانت في الفقه، ويفيض بعقله الخصب ونفسه الفياضة علىٰ سامعيه، حتىٰ جاءت سنة ٧٢٦ فأُمر بالانتقال إلىٰ القلعة.

ونذكر ببعض التفصيل سبب ذلك، وذلك لأن الذين يتربصون به الدوائر إما لحسد بسبب ما ناله من منزلة عند الناس، وإما لخصومة لجوج في الفكر والرأي والاتجاه كالصوفية والروافض، ومن الفقهاء من عاداه لأنه رأىٰ فيه انحرافًا وخروجًا علىٰ الدين.

اجتمعت كلمة هؤلاء وأولئك علىٰ الكيد للشيخ، فأخذوا يبحثون عن رأي له يغضب العامة والخاصة معًا، فوجدوا فتوىٰ كان

قد أفتاها منذ سبع عشرة سنة، وهي أنه يرىٰ منع زيارة قبور الصالحين، بل منع زيارة الروضة الشريفة التي بها قبر رسول الله ﷺ، وهذا بعض عبارات هذه الفتوىٰ: «في سنن سعيد بن منصور أن عبد الله بن حسين بن حسن بن علي بن أبي طالب رأىٰ رجلًا يختلف إلىٰ قبر النبي ﷺ فقال ناقلًا عن النبي ﷺ قوله: «لا تتخذوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ؛ فإن صلاتكم حيثما كنتم تبلغني» فما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء.

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال في مرض موته: «**لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر مما فعلوا، ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يُتخذ مسجدًا. وهم دفنوه في حجرة [عائشة][1] رضي الله عنها، علىٰ خلاف ما اعتادوه من الدفن في الصحراء، لئلا يصلي أحد عند قبره، ويتخذه مسجدًا، فيتخذ قبره وثنًا، وكان الصحابة والتابعون لما كانت الحجرة منفصلة عن المسجد إلىٰ زمن الوليد بن عبد الملك لا يدخل أحد منهم إليه، لا لصلاة هناك، ولا لتمسح بالقبر، ولا دعاء هناك، بل هذا جميعه إنما كانوا يفعلونه بالمسجد، وكان السلف الصالح إذا سلموا علىٰ النبي ﷺ وأرادوا الدعاء دعوا مستقبلي القبلة، ولم يستقبلوا القبر، وأما الوقوف للسلام عليه، صلوات الله وسلامه، فقال أبو حنيفة: يستقبل

---

(١) سقط من المطبوع.

القبلة أيضًا، ولا يستقبل القبر، وقال أكثر الأئمة: يستقبل القبر عند الدعاء».

٢٣- لقد قيلت هذه الفتوىٰ منذ مدة طويلة، ولم تتحرك فتن لأجلها، ولم يحاول أحد أن يتخذ منها سبيلًا للنكاية والأذىٰ لمكانته عند السلطان إبان ذاك.

فلما كانت الجفوة بسبب الإفتاء في مسائل الطلاق انتهزوا تلك الفرصة، وحركوا السلطان والعامة عليه، إذ اتخذوها سبيلًا للتأثير في العامة لما للنبي ﷺ من مكانة قدسية، فإن نفس المسلم سرعان ما تتحرك إن أتيت من قبل ما يمس شخص النبي ﷺ.

وقد كاتب المؤتمرون السلطان بذلك، وقيل له فيها: إنه حرف الكلم عن مواضعه، فرأىٰ السلطان حبسه في محبس يليق بمثله، وجاء الأمر بذلك إلىٰ دمشق في السابع من شعبان سنة ٧٢٦، وبلغ إلىٰ الشيخ، وأحضروا له مركبًا ونقل إلىٰ قلعة دمشق، وأجري عليه، وأقام معه أخوه زين الدين يخدمه بإذن السلطان.

وما أن اعتقل الشيخ حتىٰ تكشفت القلوب عن خبيئاتها، ونزل الأذىٰ بتلاميذه وأوليائه، فأمر قاضي القضاة بحبس جماعة منهم، وعزر جماعة من أصحابه بإركابهم علىٰ الدواب والمناداة عليهم، ثم أطلقوهم بعد ذلك من محابسهم ما عدا صفيه وحامل اللواء من بعده شمس الدين ابن قيم الجوزية.

لقد كان هذا الاعتقال إذن موضع ألم المخلصين، وموضع شماتة الحاسدين والمبتدعين، ولذلك اشتدت البدع، وكان المخلصون من العلماء في شدة، ولم يكن الألم مقصورًا على دمشق وعلمائها المخلصين، بل تجاوزه إلى علماء بغداد، فكتبوا إلى الناصر كتابًا يبينون فيه النازلة التي نزلت بالمسلمين بعد إغماد السيف الذي كان مصلتًا، وجاء في الكتاب «لما قرع أهل البلاد الشرقية والنواحي العراقية التضييق على شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية -سلمه الله- عظم ذلك على المسلمين، وشق على ذوي الدين، وارتفعت رؤوس الملحدين، وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين، ولما رأى علماء هذه الناحية عِظَمْ هذه النازلة من شماتة أهل البدع والأهواء بأكابر الفضلاء وأئمة العلماء أنهوا حال هذا[1] الأمر الفظيع إلى الحضرة الشريفة السلطانية - زادها الله شرفًا - وكتبوا أجوبتهم في تصويب ما أجاب به الشيخ - سلمه الله - في فتاواه».

وكان تأييد ابن تيمية في هذا قد جاء من علماء من مختلفي المذاهب؛ منهم مالكية، وحنفية، وشافعية، وهذا يدل على أن ما دعا إليه قد وصل إلى عامة العلماء في مصر والشام والعراق، وعلى أنه صار له أثر في قلوب أكثرهم، وأن حبسه كان بردًا وسلامًا على أهل الأهواء والبدع.

---

(١) في المطبوع: هذه.

٢٤- لنترك الذين لم يدخلوا السجن، ولنتجه إلىٰ السجين الحر، وهنا نجد الخارجين الحاقدين في أذىٰ، وبعضهم يرتع ويلعب، ونجد الشيخ في سرور المؤمن التقي؛ لأن ما وقع به كان يتوقعه، وقال: «أنا كنت منتظرًا ذلك، وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة» وقد كان في حاجة إلىٰ الهدوء، والبعد عن ضجة المدن، وقد انصرف في هدأة ذلك المحبس إلىٰ أمرين: أحدهما العبادة وتلاوة القرآن الكريم، وثانيهما تمحيص آرائه وتدوينها في هذا الهدوء الشامل.

وقد كتب في تلك الفترة كثيرًا من التفسير، ولم ينقطع عن الناس، فقد كانت رسائل الناس تأتي إليه ويفتيهم ويرد عليهم، فكانت كتابات الشيخ تذيع بين الناس ويتحدثون فيها، ولعل احتجابه عنهم زادهم شغفًا بها، فكان التأثير بها أشد من التأثير لو كان قائما بينهم، لأن الممنوع المخبوء إن عرف ذاع أكثر من المعلن المكشوف، إذ النفوس تتطلع إليه، وتبحث عنه، وتقرؤه بعناية، لأنه يكون كالشيء النفيس يعثر عليه، ويكشف عنه فلا يلبث إلا قليلًا حتىٰ تتناوله الأيدي.

عندئذ وجد الذين يريدون محاربة آرائه وأفكاره أنهم حبسوا شخصه، ولم يحبسوا فكره ورأيه، فمكروا مكرهم عند ذوي السلطان ليمنعوا ذلك النور أن يخرج من ردهات السجن، فيضيء بين العلماء.

ولقد كان من نتيجة ذلك التدبير الخفي أنه في اليوم التاسع من جمادي الآخرة سنة ٧٢٨ أخرج ما كان لدىٰ الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الكتب والأوراق والمحابر والأقلام، ومنع منعًا باتًّا من المطالعة، وحملت كتبه التي كان يكتبها أو يراجعها في مستهل رجب من هذه السنة إلىٰ المكتبة الكبرىٰ، وكانت نحو ستين مجلدًا وأربع عشرة حزمة من كراريس، وحفظت بها، واستمرت محفوظة.

وقد قال ابن كثير في سبب هذا التطبيق «كان سبب ذلك أنه أجاب لما كان رد عليه به ابن الإخنائي المالكي في شأن الزيارة، فرد عليه الشيخ تقي الدين واستجهله، وأعلمه أنه قليل البضاعة في العلم، فطلع الإخنائي إلىٰ السلطان وشكاه».

۞ ۞ ۞

٢٥- بلغ الضيق بالشيخ أقصاه، فمُنع من الكتب والكتابة، ولم يتركوا عنده محبرة ولا قلمًا، ولكن ذلك الفكر المتحرك الذي لا يني عن العمل لا يمكن أن يحتبس، ولذلك كان أحيانًا يضطر إلىٰ أن يقيد بعض آرائه وخواطره، فيقيدها بفحم علىٰ ورق متناثر، وقد جمع الورق المتناثر، وحفظه التاريخ علىٰ أنه من آثاره.

ولقد احتمل ابن تيمية ذلك الابتلاء بصبر وجلد، وعلم أنه الجهاد العظيم، وقال في هذا: «نحن والله في عظيم الجهاد في سبيله، بل جهادنا في هذا السبيل مثل جهادنا يوم قازان، والجَبَلية، والجهمية، والاتحادية وأمثال ذلك، وذلك من أعظم نعم الله علينا

وعلىٰ الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[١].

وكان هذا الكلام مما كتب علىٰ الأوراق المنثورة.

لم يطل ذلك المحبس الضيق علىٰ ابن تيمية، فإن الله قد قبضه إليه في العشرين من شوال سنة ٧٢٨ بعد مرض نزل به، ولقد كان عظيمًا في آخر أيامه، كما كان عظيمًا طول حياته، فقد ذهب إليه وزير دمشق في مرضه يعتذر إليه، ويلتمس منه أن يحلله مما عساه يكون قد وقع منه من تقصير أو أذىٰ، فيجيبه العظيم: «إني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني علىٰ الحق، وأحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياي، لكونه قد فعل ذلك مقلدًا معذورًا، ولم يفعله لحظ نفسه، وقد أحللت كل أحد مما كان بيني وبينه، إلا من كان عدو الله ورسوله».

۞ ۞ ۞

٢٦- مات ابن تيمية فسكنت تلك الحركة الدائبة المستمرة، وأحس أهل دمشق بوفاة عالمها، بل بعالم المسلمين، فخرجت جموعها محتشدة تودّعه حتىٰ مثواه الأخير، ولقد قدر الله لذلك العالم الحر العظيم أن يموت وليس لابن أنثىٰ عليه من فضل. لقد

---

(١) يوم قازان هو يوم التقىٰ بقازان عندما هاجم التتار دمشق، وقازان قائدهم. والجبلية هو حربه مع النصيرية يوم أن ذهب وأنزلهم من الجبل، والجهمية هم منكرو الصفات الذين جادلهم، والاتحادية هم الصوفية الذين كانوا يقولون بوحدة الوجود. (ز)

توثَّقت العلاقة بينه وبين الناصر، حتىٰ حكّمه في رقاب العلماء الذين آذوه، فما قال فيهم إلا خيرًا، ولو مات وهو ممكّن عند السلطان ذلك التمكين لقال بعض الناس: إنه تابع للسلطان، وإنه من رجاله يحط في هواه، وإنه ما علا إلا بقوته، ولكن يأبىٰ الله العلي القدير إلا أن يظهر ذلك العالم علىٰ حقيقته، وبجوهره، العالم المستقل الذي لا يتبع أحدًا إلا الله، ويقول الحق، ولا يضطرب ولا يتلعثم، وعظمته من نفسه. وهو كالدوحة العظيمة يستظل بظلها الناس، ولا تستمد قوتها إلا من فالق الحب والنوىٰ، ولو كان يستمدها من الناصر ما ألقاه في غيابة السجن، فكان هذا هو الدليل القاطع علىٰ أنه متبوع لا تابع، وحر سيد لنفسه، وليست نفسه ولا فكره ملكًا لأحد.

ثوىٰ ذلك العالم إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ورضوانه بعد أن جاهد أكثر من ثلاثين سنة من يوم أن بزغ نجمُه عالمًا بين العلماء إلىٰ أن فاضت روحه.

٢٧- وقد يقول قائل: إن ابن تيمية كان ممكنًا عند السلطان، فلماذا تغير عليه ذلك التغير، ابتدأ فحبسه حبسًا رفيقًا ثم حبسًا شديدًا، فنقول: إن الحوادث يفسر بعضها بعضًا، ذلك أن الناصر لبث بمصر، وقد فارقها ابن تيمية ولزم درسه بدمشق، فما الذي تعرض له الناصر، حتىٰ يغير نفسه من ناحية ابن تيمية؟

فلنتجه إلىٰ كتب التاريخ نتلمس حاله فيها، لقد ذكر المقريزي: «أن الناصر ركب كعادته للصيد، وبينما هو في الطريق إذ انتابه ألم شديد، كاد يقضي عليه، فنزل عن فرسه، ولكن الألم تزايد عليه، فنذر إن عافاه الله أن يبني في هذا الموضع مكانًا يتعبّد فيه الناس، ولما عاد إلىٰ قلعة الجبل، وقد شفاه الله من مرضه سار بنفسه إلىٰ الموضع الذي انتابه فيه المرض، وصحبه جماعة من المهندسين، واختطَّ هذه الخانقاه (خانقاه سرياقوس) في سنة ٧٢٣، وجعل فيها مئة خلوة لمئة صوفي، وبنىٰ بجانبها مسجدًا تقام فيه الجمعة، وبنىٰ حمّامًا ومطبخًا» وتم ذلك في سنة ٧٢٥.

وإذا علمنا أن أول محنة بابن تيمية كانت سنة ٧٢٦، نعرف من أين جاء التأثير، لقد صار من ذلك الوقت الناصر صديقًا حميمًا للصوفية، وهم أعداء ابن تيمية، وقد شدد النكير عليه شيخهم ابن عطاء الله السكندري.

وما دام قد فتح قلبه للصوفية، فلابد أنه أغلقه عن ابن تيمية، وسمع لتأثيرهم، وبذلك كانت الجفوة ثم كانت المحنة بعد المحنة، ثم كان التضييق الذي انتهىٰ بوفاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والآن ونحن ندرس ابن تيمية لا ننتقل من حياته إلىٰ عصره إلا بذكر أمرين: صفاته الشخصية، وجهاده بالسيف.

❁ صفاته:

٢٨- اختص الله سبحانه وتعالىٰ ذلك الرجل بصفات كانت هي البذرة التي نمت واستوت علىٰ سوقها، فكانت ذلك العالم الجليل، وما نمت إلا بما سقيت من ماء، وما تهيأ من جو وتربة صالحة، وذلك بالدراسة العميقة، والعصر الذي عاشت فيه.

وأولي هذه الصفات: حافظة واعية، وهي أساس العلم، وبمقدارها ومقدار القدرة علىٰ استخدامها يكون قدره وسط العلماء، وقد بدأت هذه الصفة في صدر حياته، واستمرت ملازمة له حتىٰ وفاته.

والصفة الثانية من صفات ابن تيمية: العمق في التفكير، فقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدرس المسائل متعمقًا، وكان يدرس الآيات والأحاديث وقضايا العقل، ويوازن ويقايس بفكر مستقيم حتىٰ ينبلج له الحق واضحًا، فلم يكن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حافظًا واعيًا فقط، بل كان مدركًا متأملًا مستنبطًا فاحصًا، يردد البصر، ويسبر غور المسائل، حتىٰ يصل فيها إلىٰ نتائج محققة، وما يصل إليه تدهش له العقول، ويُحيِّر الخصوم.

والصفة الثالثة: حضور البديهة، فقد كان مع قوة حافظته وتعمقه في الدراسة حاضر البديهة، تخرج إليه المعاني من مكانها سريعة كالجندي السريع يجيب أول نداء، وكان يبدو ذلك في دروسه، فأرسال المعاني تجيء إليه من غير إجهاد، وعند المناظرة يفحم الخصوم بكثرة ما يحفظ، وبحضور ما يحفظ. والبديهة الحاضرة

بالنسبة للخطيب والمناظر كأدوات الحرب السريعة للمُقاتل تصيب المَقاتل، وتقطع مفاصل القول، وتُربك الخصم.

ولهذه الصفة كان خصوم ابن تيمية يتهيبون لقاءه، ومن لا يعرفها فيه ويغتر بحجته إذا لقيه يكون عبرة المعتبرين.

والصفة الرابعة: الاستقلال الفكري، ولعل هذه الصفة أبرز الصفات في تكوُّن علمه وشخصيته العلمية التي جعلت له مزايا خاصة ليست في غيره من العلماء الذين عاصروه، ولقد قال في استقلاله الفكري أحد تلاميذه: «كان إذا وضح له الحق عض عليه بالنواجذ، والله ما رأيت أحدًا أشد تعظيمًا لرسول الله صلي الله عليه وسلم، ولا أحرص علىٰ اتباعه ونصر ما جاء به منه، حتىٰ كان إذا أورد شيئًا من حديثه في مسألة، ويري أنه لم ينسخه شيء غيره من حديث يعمل ويقضي ويفتي بمقتضاه، ولا يلتفت إلىٰ قول غيره من المخلوقين كائنًا من كان، لا يخاف في ذلك أميرًا ولا سلطانًا ولا سيفًا، ولا يرجع عن الكتاب والسنة لقول أحد، وهو متمسك بالعروة الوثقي».

والصفة الخامسة: الإخلاص في طلب الحق، والطهارة من أدران الهوىٰ والغرض في طلب الدين وكشفه للناس. والإخلاص يقذف في قلب المؤمن بنور الحقيقة، ويجعله يدرك الأمور إدراكًا مستقيمًا، وفي الحكمة المشرقية: إن الاتجاه المستقيم المخلص يجعل الفكر مستقيمًا، والعمل مستقيمًا، والقول مستقيمًا.

وقد تجلىٰ إخلاص ابن تيمية في أمور أربعة:

أولها أنه كان يجابه العلماء بما يوحيه إليه فكره، لا يهمه إلا رضا الله سبحانه ورضا الحق، وسواء عليه أَرَضِي الناس أم سخطوا.

والأمر الثاني الذي أظهر إخلاصه وتفانيه في الحق: جهاده في سبيله، ولو كان بالسيف يحمله، وقد كان يتحمل البلاء الشديد في سبيل إعلان رأيه، وقد تحمل في هذا السبيل السجن المستمر من أعدائه وأصدقائه علىٰ سواء.

والأمر الثالث الذي أظهر إخلاصه، وبُعده وتنزهه عن الأغراض والأهواء هو عفوه عمن يسيء إليه، عفا عن العلماء الذين سجنوه وقد تمكن من رقابهم، وأخيرًا عفا عن ضيقوا عليه في آخر حياته، حتىٰ مات في محبسه.

الأمر الرابع الذي بدا فيه إخلاصه: زهده عن المناصب، وكل زخرف الدنيا وزينتها، فلم يتول منصبًا، ولم ينازع أحدًا في رياسة، بل رضي أن يكون المدرّس الواعظ الباحث، فلم يطلب رياسة يتنافس فيها[1] المتنافسون، ولذا كان متصلًا بالله، ولا يرجو النجاة إلا من الله تعالىٰ، وقد نجاه. وقد قال الذهبي في ذلك: «وكم من نوبة قد رموه فيها عن قوس واحدة فينجيه الله تعالىٰ، فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يديمها».

---

(١) في المطبوع: يتنافس فيها يتنافس. بتكرار "يتنافس".

الصفة السادسة: فصاحته، وقدرته البيانية، فقد كان ﷺ خطيبًا وكاتبًا جمع الله سبحانه وتعالىٰ له فصاحة اللسان والقلم، ويظهر أن هذه الموهبة وراثية في أسرته، فقد كان أبوه متكلمًا مجيدًا، وقد قوَّىٰ تلك الملكة البيانية كثرة قراءته للقرآن، وترديده للسنة النبوية وحفظه لها، فإن الكتاب والسنة أمداه بطائفة كبيرة من الألفاظ الجيدة المنتقاة. وفوق ذلك، فإن كثرة المعارك البيانية أرهفت قواه، وعودته القول الارتجالي.

الصفة السابعة: الشجاعة، ومعها صفتان أخريان، وهما الصبر وقوة الاحتمال، فقد اتصف بالشجاعة في ميدان الحرب، وإدارة شؤون الدولة، والقضاء علىٰ الفساد في مدة الفوضىٰ التي أوجدها غزو التتار لمدينة دمشق الفيحاء، وبدت شجاعته الأدبية طول حياته، فتجرد للمخالفين، واتجه إلىٰ السنة وأعلنها، ولو خالفت كل مألوف عند الناس، وكانت هي سبب بلائه، فلما نزل البلاء بدت فيه صفتان: الصبر، وقوة الاحتمال.

أما الصبر فقد كان الصبر الجميل الذي لا يتبرم فيه ولا يتململ، وأما قوة الاحتمال فتُعد في احتفاظه بكل مواهبه، وقد انقطع عن الناس نحو سنتين لم ين ولم يضعف، ولم يُحس بإرهاق، بل أحس بوجوب العمل فلم ينقطع.

ثم كان له مع هذه الصفات هيبة يضطرب أمامها الخصوم.

❁ من محراب العلم إلى ميدان الحرب والسياسة:

٢٩- عهد الناس العلماء في عصر ابن تيمية عاكفين علىٰ العلم، قد انحلت المقاعد أجسامهم، وتراخت عضلاتهم، وتقوست عظامهم، يرون قوة العالم كلها في فكره ورأسه، فهو من الأمة رأسها لا عضلاتها وقوتها البدنية، ولعل ذلك أتىٰ إليهم من الفلسفة الهندية، أو الديانة البرهمية، التي تقول إن العلماء في الدين خلقوا من رأس براهما، وإن الجند خلقوا من ساعديه.

هذا ما كان عليه العلماء في عصر ابن تيمية وقبله وبعده، ولذلك كانوا يفرون من التتار، كلما دخلوا بلدًا يتركونه، فارِّين إلىٰ أقرب مصر إليه، ففرُّوا من بغداد إلىٰ دمشق، ومن دمشق إلىٰ القاهرة.

ولكنَّ عالمًا من هؤلاء العلماء لم يرض هذه القاعدة، لأنه رأىٰ السلف الصالحين من الصحابة كانوا علماء ومجاهدين ومدبرين لشؤون الدولة، فأبو بكر كان عالمًا ومدبرًا ومحاربًا، وعمر رضي الله عنه كان عالمًا وفقيهًا، وأعظم مدبر للدولة، وأعظم عادل رآه التاريخ بعد النبيين. أما عليٌّ فهو باب مدينة العلم وأقضىٰ الصحابة، وكان فارس الإسلام حقًّا وصدقًا، كما قال فيه النبي صلي الله عليه وسلم.

كان الشيخ تقي الدين في درسه يلقي العلم، ويرقب الحوادث ومجرىٰ الأمور، ويستعد للدخول في القتال.

لقد جاء التتار إلىٰ دمشق سنة ٦٩٩، ولم تكن حاميتها كافية لصد غاراتهم، ففرت تلك الحامية إلىٰ مصر، وفر معهم العلماء والقضاة وغيرهم من كبار الدولة حتىٰ صار البلد شاغرًا من علمائه وحكامه، وكان ذلك قبل دخولها.

٣٠- ولكن ابن تيمية أبىٰ أن يفر، وأن يترك البلد فوضىٰ، لأن له قلبًا يحول بينه وبين الفرار، وله إحساس يمنعه من أن يترك العامة من غير مواس في هذه المأساة، وقد رأىٰ بعض الذين مالؤوا التتار يلقون الخمر في المساجد، ويعلنون الفساد، وساد السلب والنهب فرأىٰ الشُّطَّار يخرجون من السجون يخربون ويعيثون في المدينة فسادًا.

لذلك جمع ابن تيمية أعيان المدينة الذين لم يتمكنوا من الفرار، واتفق معهم علىٰ ضبط الأمور، واتفقوا علىٰ أن يذهبوا إلىٰ قازان قائد التتار وملكهم، وكانوا قد دخلوا في الإسلام، وكانوا في إسلامهم كالأعراب، لما يدخل الإيمان قلوبهم، وقازان رابع ملك مسلم فيهم.

ذهب الشيخ علىٰ رأس الوفد والتقىٰ بقازان القائد الفاتك الذي سارت بذكر فتكه الركبان، فقال الشاب العالم للمترجم: «قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وشيخ ومؤذن علىٰ ما

بلغنا، وأبوك وجدك كانا كافرين، وما عملًا الذي عملت، عاهدا فوفَّيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت، وجُرت». أخذ قائد الحرب من قول قائد العلم واضطرب، وازداد اضطرابه عندما قدم للوفد الطعام، فامتنع ابن تيمية عن الأكل، فقال له: لم لا تأكل؟ فقال له: «كيف آكل من طعامك؟ وكله مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه مما قطعتم من أشجار الناس».

كان الشيخ يتكلم، وهو يحس بأن الله يؤيده لأنه يؤيد دينه، ويرفع أمره، ويدفع عن خلقه، والله فوق كل جبار عنيد، لذلك لانت قناة قازان لما وقع في قلبه من كلامه، حتىٰ إنه يقول: «إني لم أر مثله، ولا أثبت قلبًا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقيادًا لأحد منه».

انقاد الطاغية العتِيُّ للعالم التقي، فأخذا يتحدثان في المقصد الذي جاء إليه، واستطاع الشيخ أن يؤجل غزو التتار لدمشق وهو يعلم أن التأخير سيعقبه من بعد ذلك الاستعداد للقتال، وحمل الشيخ قازان علىٰ أن يفك الأسرىٰ الذين أسرهم، ففك القائد أسرىٰ المسلمين، ولم يرد أن يفك وثاق الأسرىٰ من أهل الذمة من اليهود والنصارىٰ، ولكن الشيخ عارضه وأبىٰ أن يعود إلىٰ دمشق إلا ومعه أسرىٰ النصارىٰ واليهود أيضًا، وصك أذن قازان بكلمة الإسلام «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

٣١- عاد السكون من بعد ذلك إلىٰ دمشق، ولكنه سكون علىٰ حذر وتوجس وخوف، فسكن الناس ولم يأمنوا، وقد بلغهم في سنة ٧٠٠ أن التتار سيقصدون الشام من بعد رحيلهم فساد الذعر، ولكن ابن تيمية العالم لبس لبوس القائد في هذه المرة، فجمع الناس وقال لهم إن الجهاد واجب، وبدل أن ينفروا فارين ينفرون مجاهدين، وتابع الاجتماع بالناس، ونودي في البلاد ألا يسافر أحد إلا بمرسوم. فاطمأن الناس إلىٰ الجهاد، وعادت إليهم ثقتهم بأنفسهم، وزادهم استيثاقًا ما بلغهم من أن الناصر جمع جيوشًا لجبهةٍ لقتال التتار، ولكن الناصر بعد أن أخذ الأهبة، وقطع بعض الطريق قفل راجعًا.

أصاب الناس الذعر مرة أخرىٰ، وتلَفَّتوا في ذعرهم لا فرق بين حاكم ومحكوم إلىٰ البطل المؤمن، فخرج إليهم يحثهم علىٰ القتال، وتلا عليهم قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج:٦٠][(١)].

وقد طلب إليه الأمراء ونائب السلطنة أن يركب إلىٰ الناصر يستحثه علىٰ القتال، فوصل إليه وقد انتشر الجند بعد اجتماعهم، وتفارطت الحال، فقال ابن تيمية للناصر قوله الحازم: «إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانًا يحوطه ويحميه ويستغله

---

(١) كتب بدل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج:٦٠]، قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج:٧٤]، وهو خطأ.

في زمن الأمن، ولو قدر أنكم لستم حكامه ولا ملوكه، واستنصركم أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم».

وما زال ذلك العالم بهم حتىٰ خرج السلطان بجنده إلىٰ الشام، ولكن ابن تيمية خرج من دمشق فسَادَها الذعرُ، ووجفت القلوب، وتنادىٰ الأمراء ووالي المدينة بأن من قدر علىٰ شيء فليخرج، ولكن ابن تيمية عاد بشيرًا قبل أن يستجيبوا لذلك الناعب نَعْبَ البُوم، وقد عاد إليهم الأمن لأن ابن تيمية جاء إليهم، ولأن السلطان أقبل بجنده، ولأن التتار أجَّلوا الغزو من عامهم هذا، وعاد ابن تيمية إلىٰ درسه.

٣٢- جاء التتار من بعد ذلك سنة ٧٠٢ بجموعهم إلىٰ الشام، واستعد الجيش الموحد؛ جيش مصر والشام لملاقاة التتار، وتحالف العلماء والقضاة والأمراء علىٰ أن يلاقوا العدو ولا يخرجوا من دمشق، مع أن دعاة التردد والهزيمة قد أخذوا ينشرون الفزع في قلوب الناس.

دعا ابن تيمية إلىٰ الجهاد، وتكرر الدعوة، وما كان لمثله أن يدعو إلىٰ الجهاد وينكص علىٰ عقبيه، فتقدم إلىٰ الميدان حاملًا السيف، وقد سأله السلطان أن يقف معه في المعركة، فقال إمام السنة: «السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام؛ لا نقف إلا معهم».

وكانت الموقعة في رمضان فحث الجنود علىٰ الإفطار، وروىٰ لهم قول النبي ﷺ في غزوة الفتح: «إنكم ملاقو العدو، والفطر أقوىٰ لكم».

وقعت الواقعة، وانتصر الجيش الموحد، «الجيش الأول والجيش الثاني، كما نعبر الآن»، في موقعة كانت في مكان اسمه شقحب، وهو قريب من دمشق.

وقف ابن تيمية هو وأخواه موقف الموت وأبلوا بلاء حسنًا، وكان النصر المبين.

٣٣- وبعد أن عاد الأمن بزوال الخطر اتجه عقل ابن تيمية المستيقظ إلىٰ طوائف تنتسب إلىٰ الإسلام، تعتصم بالجبال، كانوا يمالئون أعداء الإسلام من الصليبيين، ومنهم الطائفة التي تسمىٰ طائفة الحشاشين الذين يتخذون من هذه المادة سبيلًا للاستهواء النفسي، ومالؤوا من بعد ذلك التتار في غاراتهم المتكررة، وكانوا عيونًا علىٰ المسلمين في الحرب، ودعاة في السلم، وقد قال ابن تيمية عن أفعالهم في السلم: «لقد كان جيرانهم من أهل البقاع منهم في أمر لا يضبط شره، كل ليلة تنزل منهم طائفة ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، كانوا في قطع الطريق، وإخافة سكان البيوت علىٰ أقبح سيرة عرفت من أهل الجنايات، منهم من يرد إليهم

النصارىٰ من أهل قبرص، فيضيفونهم ويعطونهم سلاح المسلمين، ويقعون بالرجل الصالح من المسلمين، فإما أن يقتلوه، وإما أن يسلبوه، وقليل منهم من يفلت بالحيلة».

ولقد قال ابن تيمية في وصفهم أيضًا:

«لما قدم التتار إلىٰ البلاد فعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصىٰ من الفساد، وأرسلوا إلىٰ أهل قبرص، فملكوا بعض السواحل، وحملوا راية الصليب، وحملوا إلىٰ قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم ما لا يُحصي عددهم إلا الله، وأقاموا سوقهم بالساحل عشرين يومًا، يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح علىٰ أهل قبرص (أي الصليبيين المحاربين للمسلمين)».

هذه أمور حزت في نفس ابن تيمية، ولعل أشدها مرارة بيع الأحرار من المسلمين للصليبيين في أثناء حرب التتار الحاضرة، وحرب الصليبيين من قبل.

لذلك جرد بأمر الناصر حملة قادها بنفسه، ومعه نقيب الأشراف، فقاتلوا حاملي السلاح منهم، وقطعوا أشجار الجبل حتىٰ ينكشفوا للناس، واستتابوا خلقًا منهم، وألزموهم بشرائع الإسلام، وفرضوا الزكاة علىٰ مسلميهم، والجزية علىٰ غيرهم.

هذا هو ابن تيمية الذي خرج من محراب العلم ليقاتل، ثم عاد إليه بعد أن أدىٰ واجب الجهاد، وقد عاد إلىٰ جهاد أعظم.

❁ عصرُ ابن تيمية

٣٤- إن البذرة الطيبة لا تنمو إلا بسقيٍ ورعيٍ في أرضٍ طيبةٍ، وجوٍّ تتغذّىٰ منه وتعيش، ولذلك كان للعصر الذي عاش فيه ابن تيمية أثرٌ واضح في اتجاهاته العلمية والعملية، وليس أثرُ العصر يتّفق دائمًا مع جنْسِ العصر، فإن كان العصر فاسدًا فسد الرجل، وإن كان صالحًا صلح الرجل، وقد يكون التأثيرُ عكسيًّا، فكثرة الفساد تحمل علىٰ التفكير الجدِّي في الإصلاح، وكثرة الشَّر تحمل علىٰ استحصاد عزائم أهل الخير لمقاومة الفساد، فتكون دافعةً المُصْلِحَ؛ لأنه يفكِّر في أسباب الشَّر فيَجْتَثّها، وفي نَواة الخير فتُنمِّيها.

وكذلك كانت المجاوبة بين ابن تيمية وعصره، تغذَّت روحه غذاءً صالحًا بما درس في صدرِ حياته، وما كانت عليه أسرته، ثُمَّ ما عكف عليه في شبابه وكهولته من رجوعٍ إلىٰ ينابيع الشرع الأولىٰ والكنز المختفي من الهدي النبوي وما عليه سلف المؤمنين، ثُمَّ ما عليه أهلُ العصر الذي أظلَّه، فكانت المعركةُ شديدةً في نفسه بين ما عَلِمَ وما يرىٰ في عصره من ظلمةٍ شديدةٍ وفسادٍ في كلِّ نواحيه. رأىٰ في ماضي الإسلام عِزَّةً واتحادًا، وفي حاضره ذلةً وانقسامًا.

تقدَّمَ الرَّجلُ ليصلح وليداوي، وقد وجد الدواء بأيسر كلفة، وجد هذه الأُمَّة لا يصلح حاضرها إلا بما صلح به أوّلها.

وما كانت آراؤه العلمية إلا دواءً لأسقام عصره، ولو فتّشتَ عنِ

البواعث التي بعثت ذلك العالِم التَّقِيّ على المجاهرة بآراءٍ معينة لوجدتَ أنَّ الذي بعث على هذه المجاهرة عيبٌ في الزمان، في الفكر أو في العمل أو فيهما معًا.

❁ الحال السياسية:

٣٥- وصل السوء في الحال السياسية إلى أقصاه، وتحققت نبوءة النبي ﷺ في قوله: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم تداعي الآكلة على قصعتها»، فقال قائل: ومن قلةٍ نحن يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنْ غُثاءٌ كغُثاءِ السيل، ولينزعنَّ من صدور عدوكم المهابة، وليقذفنَّ في قلوبكم الوَهن»، قال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال عليه السلام: «حبُّ الدنيا، وكراهية الموت».

فكانت هذه الحال تنطبق على المسلمين في القرن السابع والثامن من الهجرة، كما كانت تنطبق على قرونٍ من قبلُ ومن بعدُ، لقد انقسم المسلمون إلى دُوَيْلَاتٍ، وحوزات ملوك ينظر بعضهم إلى بعض نظَرَ العدو المفترس لا نظرَ المؤمن الموالي، ونظرة الملوك إلى رعاياهم نظرة الجبَّارِين المُسَلَّطِين، لا نظرة الراعي الذي يحمي رعيته من أن تقع في مواطن الرَّدَى.

وإنَّ خيرَ وصفٍ لحال المسلمين في عصرِ ابن تيمية وما قبله، ما

قاله الحافظ ابن الأثير[١] في تاريخه[٢] فقد قال:

«لقد بُلي الإسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائبَ لم يُبتلَ بها أحدٌ من الأمم، منها هؤلاء التتر، فمنهم مَن أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كلُّ مَن سَمِعَ بها، ومنها خروج الفرنج -لعنهم الله- من المغرب إلىٰ الشام وقصدهم ديار مصر وامتلاكهم ثغرها؛ أي دمياط، وأشرفت ديار مصر وغيرها علىٰ أن يملكوها، لولا لُطْف الله ونصره عليهم، ومنها أنَّ السيفَ بينهم مسلول، والفتنة قائمة.

هذه أنواعٌ من المعاول أصابت الأُمَّة الإسلامية؛ الصليبيون من الغرب، والتتار من الشرق، والثالثة هي ثالثة الأثافي؛ أنَّ بأْسَ المسلمين بينهم شديد، لا تجمعهم وحدة الإسلام، بل فرَّقتهم حوزات الملوك، ومزَّقتهم الطوائف المنحرفة حتىٰ صارت كأنها الأحزاب، ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وإنَّ البَلِيَّة التي أَنْسَتِ المسلمين كلَّ أنواع البلاء هي غزوات التتار التي رأىٰ ابن تيمية بعضها، وخاض غمار آخرها، ولنترك القلم للمؤرِّخ ابن الأثير[٣]، فإنه يقول:

---

(١) في المطبوع: ابن كثير، سهو.

(٢) الكامل: ١٠/ ٣٣٥.

(٣) الكامل: ١٠/ ٣٣٣- ٣٣٤.

«لقد بقيتُ عِدَّة سنين مُعْرِضًا عن ذِكْر هذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذِكْرِها، وهأنذا أُقدِّمُ رِجْلًا وأُؤَخِّرُ أخرىٰ، فمَن ذا الذي يَسْهُلُ عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومَن ذا الذي يَهُون عليه ذكر ذلك، ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل هذا وكنتُ نسيًا منسيًّا، إلا أني حثَّني جماعة من الأصدقاء علىٰ تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيتُ أنَّ تَرْكَ ذلك لا يجدي نفعًا، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمىٰ، والمصيبة الكبرىٰ التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمَّت الخلائق، وخصَّت المسلمين، فلو قال قائلٌ: إنَّ العالَم مُذ خلقَ اللهُ سبحانه وتعالىٰ آدم إلىٰ الآن لم يُبتلوا بمثلها لكان صادقًا، فإنَّ التواريخ لم تتضمن ما يقاربها، ولا ما يدانيها، ولعلَّ الخَلْقَ لا يرون مثل هذه الحادثة إلىٰ أن ينقرض العالم وتفنىٰ الدنيا إلا يأجوج ومأجوج.. هؤلاء لم يُبْقُوا علىٰ أحد، بل قتلوا النساء والرجال، والأطفال وشَقُّوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجِنَّة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعمَّ ضررها، وصارت في البلاد كالريح استدبرته الريح.

إنَّ قومًا خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد التركستان، ومنها إلىٰ بلاد ما وراء النهر، فملكوها، ثم تعبر طائفة منهم إلىٰ خراسان فيفرغون منها ملكًا وتخريبًا وقتلًا ونهبًا، ثم يتجاوزونها إلىٰ الرَّي وهَمَذان إلىٰ حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان

ويخرِّبونها، ويقتلون أكثر أهلها، ثم قصدوا بلاد قفجاق، وهم أكثر من التُّرْكِ عددًا، فقتلوا كلَّ مَن وقف لهم، فهرب الباقون إلىٰ الغياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم، واستولىٰ هؤلاء التتار عليها. فَعَلُوا هذا في أسرع زمان، لم يلبثوا إلا بمقدار سيرهم لا غير، ومضىٰ طائفة أخرىٰ إلىٰ غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد، الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا مثل ما فعل بهؤلاء وأشد من هذا مما لم يطرق الأسماع مثله..».

هذا وصفٌ مُوجَزٌ لحال هؤلاء التتار، وقد ملكوا أكثر البلاد الإسلامية وخرَّبوها وقتلوا أكثر أهلها، حتىٰ إذا جاؤوا إلىٰ بغداد كان الخلاف بين الشيعة والسُّنَّة علىٰ أشدِّه، ووزير الدولة عند الفتح كان شيعيًّا، وهو الوزير العلقمي، فقلَّلَ عدد الجيش، حتىٰ دخل التتار بغداد بأيسر كلفة، وساروا في طريقهم من بعد لا يلوون علىٰ شيء أتوا عليه إلا جعلوه كالرميم، وانسابوا في البلاد حتىٰ دخلوا حلب بعد بغداد واستولوا علىٰ قلعتها، واندس من النصارىٰ من يخطب داعيًا إلىٰ المسيحية وذمّوا الإسلام ووقفوا علىٰ المساجد، ومعهم أوانٍ فيها خمر، فمَن مرَّ عليهم من رواد المسجد رشوا بها علىٰ وجوههم بهذا، وتجرَّد لهم المسلمون فردوهم إلىٰ سوق كنيسة مريم.

وقد التقىٰ الجيشان الأول السوري والثاني المصري، والتقيا مع التتار، فهزموهم لأول مرة، وكانت الهزيمة مُنْكَرة، وأعملت

السيوف في أقفيتهم، وحطَّمت صخرتهم، وصارت جذاذًا في عين جالوت، وكانت الواقعة في آخر رمضان سنة (٦٥٨) أي: قبل مولد ابن تيمية بسنتين وبعض السَّنَة.

وقد اضطر الحكام لفرض ضرائب لمقاومة ذلك الطغيان، فجُمع من أهل مصر عن كل رجل أو امرأة دينار، وأُخذت أجور الأوقاف الخيرية قبل ميقاتها بشهر، وقد أفتىٰ بذلك عالم ذلك العصر عز الدين بن عبد السلام، علىٰ أن ذلك من الضرورات، والضرورات تبيح المحظورات.

هذه هي الحال السياسية حربٌ ونزال، وقد بزغت عين ابن تيمية فوجد التتار يعيدون الكَرَّة، وقد وجدوا الحمية الأولىٰ التي ردَّتهم قد خبت، فجاؤوا.

❁ الحال الاجتماعية:

٣٦- قال المقريزي في وصفِ الحال الاجتماعية: «لما كثرت وقائع التتار في بلاد المشرق والشمال، وبلاد القفجاق، وأسرُوا كثيرًا منهم، وباعوهم، واشترىٰ الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية، ومنهم مَن ملكَ مصر، ثم كان لقُطز معهم الموقعة المشهورة، وهزمَ التتار وأسرَ منهم خلقًا كثيرًا - ساروا بمصر والشام وسُمُّوا الوافدية، ثم كثرت الوافدية في عهدِ الظاهر بيبرس،

وملأوا مصر والشام، فانتشرت عاداتهم وطرائقهم، وكانوا إنما رُبُّوا بدار الإسلام، وأتقنوا القرآن، وعرفوا أحكام المِلَّة المحمدية، فجمعوا بين الحق والباطل، وضموا الجيد إلىٰ الرديء، وفوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام، وجعلوا له النظر في الأقضية الشرعية كتداعي الزوجين وأرباب الديون، واحتاجوا في ذات أنفسهم إلىٰ الرجوع لجنكيز خان، والاقتداء بحكم الياسا، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عاداتهم، والأخذ علىٰ يد قويهم، والإنصاف علىٰ وفق ما في الياسا، وكذلك كان يحاكم التجار الممتازون من الأهالي علىٰ مقتضىٰ قواعد الياسا، وجعلوا للحاجب النظر في قضايا الديوان السلطانية عند الاختلاف في أمور الإقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان».

هذا ما جاء في المقريزي، وهو يدل علىٰ ثلاثة أمور:

أولها: أن كثرة الأسرىٰ من الأتراك والتتار أدَّت إلىٰ أن يكون لهم منزلة خاصة ومعاملة علىٰ أساس هذه المنزلة. ومن هؤلاء الأسرىٰ مَن حكمَ مصر؛ كقطز، والظاهر بيبرس، ومَن جاء بعدُ من ملوك دولة المماليك البحرية.

وثاني هذه الأمور: أن هؤلاء الوافدية كانوا في معاملاتهم الزوجية وعلاقاتهم بغيرهم من سكان، كانوا يُعاملون بمقتضىٰ الأحكام

الشرعية، وفي معاملتهم الخاصة كانوا يُعاملون بمقتضىٰ كتاب الياسا الذي وضعه جنكيز خان القائد والملك التتري، ولا بُدَّ أنْ نعرف شيئًا مما جاء في هذا الكتاب، وقد أتىٰ ابن كثير ببعضٍ منه، وهذا نصُّ ما جاء في التاريخ الكبير:

«إنَّ مَن زنَىٰ قُتل محصنًا أو غير محصن، وكذلك مَن لاطَ قُتل، ومَن تعمَّد الكذب قُتل، ومَن سرقَ قُتل، ومَن دخلَ بين اثنين يختصمان، فأعان أحدهما قُتل، ومَن بال في الماء الواقف قُتل، ومَن انغمس فيه قُتل، ومَن أطعم أسيرًا أو سقاه قُتل، ومَن أطعم أحدًا شيئًا فليأكل منه أولًا، ولو كان المطعومُ أميرًا أو أسيرًا، ومَن أكلَ ولم يُطْعِم مَن عنده قُتل، ومَن ذبحَ حيوانًا ذُبح مثله، بل يشقُّ جوفه، ويتناول قلبه بيده يستخرجه من جوفه أولًا»[1].

هذا بعضُ ما جاء في هذا الكتاب، ولعلَّه نقلَ الجزء القاسي منه؛ لأن كلمة قتل جاءت كثيرًا.

الأمر الثالث الذي يدل عليه كلام المقريزي: أنه كان ثمة في مصر نظام الطبقات، فقد كان أولئك الوافدية لهم مركزٌ خاصٌّ بهم، ولهم فوق ذلك قانونان يحكمانهم: أحدهما: الشرع، وثانيهما: قواعد الياسا لجنكيز خان.

---

(١) تاريخ ابن كثير، ج ١٣ ص ١١٨ [١٧/ ١٦٢]. (ز)

ولا شك أن ذلك يدل علىٰ اضطراب الحال الاجتماعية، ولكن الحروب التي اشتدت، ووقف الجميع فيها جنبًا لجنب وإشراب القلوب بحب الإسلام أثَّرت في تلك الفُرقة فخفّفتها، ولا نفرض أنها أزالتها، ولا نستطيع أن نفرض أنها كانت ذات قوة وسلطان، وإلا وجدنا علىٰ قلمِ ابن تيمية ما يذكرها بالخير أو الشر.

۞ الحال العلمية والفكرية:

٣٧- اتسعت الدراسات في القرون السادس والسابع والثامن من الهجرة النبوية، والعلماء قد اختلفت مناهجهم، فعلماء قد استبحروا في الحديث والفقه والتفسير، والنحو، والعقائد، ولكن كانوا مُقلِّدين تابعِين، حتىٰ في العقائد. وكان بجوار هؤلاء فلاسفة مسلمون ينطلقون في الدراسات الفلسفية، غير ملتفتين إلىٰ غيرها، وبين هؤلاء وأولئك فلاسفة حاولوا الربط بين الشريعة والفلسفة كما رأينا ابن رشد يحاول ذلك في كتابه فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال.

ومن وراء هؤلاء المتصوفة المتفلسفة، والمتصوف العامي، فكان أصحاب الطُّرُق يقودون العامَّة إلىٰ مناهج السلوك التي سَنَّها علماء الصوفية، ومسالكهم في الإرشاد والتوجيه تقوم علىٰ التأثير

الشخصي بين الشيخ ومريديه، ومنهم مَن كان يشتطّ فيبتعد عن الدِّين، وجاء من وراء ذلك تقديس الأشخاص، واعتقاد الكرامة في الشيوخ، واتباعهم أحياءً، وتكريمهم بالزيارة أمواتًا، وكثرت الاستغاثة بهم في أضرحتهم.

وبجوار هؤلاء وأولئك كانت الفِرَق السياسية تتنازع بالفِكر والحُجَّة، ثم انتقل أمرها من المنازلات الفكرية إلىٰ المكايدة وتدبير المؤامرات وموالاة أعداء الإسلام، وإفساد الأمر عند أولياء الأمر، كما كان من بعض الطوائف التي تربط نفسها بالشيعة.

ولا بُدَّ لكي نعرف الحال الفكرية من دراسة أمرين؛ هما: الدراسة العلمية، والصوفية والمتصوفة، ومعها الدراسات الشيعية، ولنتكلم في كلٍّ واحدٍ من هذه الأمور بكلمة موجزة توضِّح ولا تفصِّل.

❁ الدراسات العلمية:

٣٨- اتَّسمت الدراسات في عهدِ ابن تيمية بالتحيُّز الفكري، فكلٌّ له إمامٌ يتبعه في الفقه، وفي العقيدة، وقد ابتدأ ذلك بالخلاف بين المذاهب في القرن الرابع، والتعصب المذهبي فيه، سواء كان في الفقه أم كان في الاعتقاد، وتوارثت الأجيال ذلك التحيز الفكري،

فانتقل إليها مُدوَّنًا في الكتب، وإنكَ لتجدُ بعض الكتب الضِّخام، فتقرؤه، فتجده كله قائمًا علىٰ شرحِ الخلافات القديمة، وبيان أوجه النظر المختلفة والتعصب لرأيٍ منها، وقد سرَىٰ ذلك إلىٰ المعاصرين لابن تيمية، فكان ذلك محل الخلاف بينه وبينهم، هم يتبعون الرجال علىٰ أسمائهم، وهو يتبع الدليل أنَّىٰ يكون.

وإذا كانت القرون الثلاثة؛ السادس والسابع والثامن قد امتازت في العلم بشيءٍ فقد امتازت بكثرة المعلومات، لا بكثرة الفِكر، فقد كانت المعلومات كثيرةً جدًّا، وتحصيلها كان بقَدْرٍ عظيم، ولكنَّ التفكير في وزنِ الأدلة بالمقاييس العقلية السليمة من غير تحيُّزٍ كان قليلًا، ولم يكن متناسبًا مع الثروة المثرية التي كانت في ذلك العصر، كُتبت موسوعاتٌ في الفقه والحديث والتفسير والتاريخ، ولكن كان الاتِّباع والتقليد هو السائد، ولم يكن التفكير المستقل ذا سلطانٍ.

٣٩- ومهما يكن من شيءٍ، فإنَّ سُبُلَ الدراسة العلمية كانت مُعبَّدةً، وإذا كان العلماء قد وضعوا حول أنفسهم إطارًا منَ التقليد لا يخرجون عنه، فقد كانت الفرص مهيأةً لأن يجيء العالِمُ الذي يدرس مستقلًّا، فإنَّ الموسوعات بين يديه يدرسها، لا دراسة التابع، بل دراسة المُقايِس الذي يزنُ الحقائق والأدلة.

لقد كانت المدارس في الفقه والتفسير والحديث قائمةً في هذه القرون مبسوطةً، فيكون أمامه الموجَّه من المدرسين الأكفاء،

وأمامه الغذاء المسطور من أقوال العلماء، والتفسيرات المختلفة لكتاب الله تعالىٰ، والموسوعات الجامعة لأحاديث رسول الله ﷺ، وفتاوىٰ أصحابه وفتاوىٰ التابعين.

ولا يهمُّنا تاريخ هذه المدارس، وكيف نشأت، ولكن الذي يهمُّنا هو مقدار ما أفاد ابن تيمية من هذه المدارس، فقد تغذَّىٰ ابنُ تيمية من هذه المدارس غذاءً كاملًا كما تغذَّىٰ من الموسوعات، إذ قد وجد كلَّ العِلمِ مبسوطًا، فابنُ حزم دوَّنَ ديوانه الفقهي العظيم في كتاب المُحَلَّىٰ، وفيه فقهُ الصحابة وفقهُ التابعين، وابنُ قُدَامَة قد دوَّن كتابه المُغْنِي، وفي الفقه الحنفي تجد الموسوعات الكبيرة كمبسوطِ شمس الأئمة السَّرخسي، وتجد في الفقه الحنبلي الكتب التي جمعت بين روايات المذاهب المختلفة، ووُجد في المذهب الشافعي الموسوعات المقارنة؛ ككتاب المجموع للنووي شرح المُهَذَّب.

وهكذا كان الأمر في الحديث وفي التفسير وفي الأصول، وفي الفلسفة وفي التصوف.

وكما كانت المدارس كانت المكاتب التي يسهل الاطلاع والقراءة فيها.

كانت المادة العلمية في شتىٰ الفروع الإسلامية مُهَيَّأةً بين يديه، وإذا كان غيره قد درسها دراسة حفظٍ واتِّباعٍ، فابنُ تيميةَ درسها

دراسة فحصٍ واجتهادٍ، ففحصها فحْصَ العارف الخبير، المحيط بالدقائق وعميق الأفكار، فتكونت له آراء مستقلة توافق بعض المألوف، أو تخالفه كله، وانطلق في إعلان آرائه حرًّا جريئًا.

❁ الصوفية والمتصوفة:

٤٠- شُغِلَ ابن تيمية بأمر التصوف في عهده، وقد استرعىٰ نظره ثلاثة أمور لم تتفق مع تفكيره ونظره، وهذه الأمور الثلاثة هي الاتحاد، وسقوط التكليف عند وجود السمو النفسي، والشعبذة.

ولنتكلم في كلِّ واحدٍ من هذه الأمور الثلاثة بكلمةٍ موجزة.

أمَّا فكرةُ اتحاد الوجود مع الذات الإلهية، فقد نبعت من أفكار هندية، ومن نظرية حلول الألوهية في بعض النفوس وبعض الأشياء، ونتج من هذا نظرية وحدة الوجود، وهي كما ذكرنا فكرة هندية قائمة لا يزال أثرها واضحًا في الأدب الهندي.

وقد تبلورت هذه الأفكار المختلفة كما أشرنا فكان التصوف الذي يقول إن الموجود واحدٌ، وما التَّعدُّد الواقع إلا تعدُّدٌ في الشكل لا في ذات الموجود، وعلىٰ ذلك يكون الوجود كله بما فيه من أرضٍ وسماء، ونجوم سابحة في الكون هي صور الله سبحانه وتعالىٰ، وقد قال في ذلك ابن عربي:

يـا خـالق الوجـود في نفسـه أنـتَ لمـا تخلقـه جـامع
تخلـق مـا ينتهـي كونـه منـك فأنـتَ الضـيِّق الواسـع

هذا اتجاه بعض الصوفية في عهدِ ابن تيمية.

والناحية الثانية هي ناحية السمو، وأساسها الشوق إلىٰ الله تعالىٰ ومحبته، وأن المحبة قدرٌ مشتركٌ بين الصوفيين أجمعين، وأساسها الإشراق الذي يفيض الله به علىٰ نفوس المخلصين من عباده الأطهار، وليس الصوفيون في مقدار هذه المحبة علىٰ سواء، فمنهم مَن راضَ نفسه علىٰ تلك المحبة، واتصل بسببها بالله، ونزع منزعًا ليس بالحلول الإلهي في النفس، ولا وحدة الوجود، ولكنه اتصال المخلوق بخالقه، وتساميه إلىٰ مرتبة الروحانية ليكون قريبًا من الله تعالىٰ.

وإنَّ الصوفي عندما يصل إلىٰ هذه الدرجة من الاتصال بالذات العلية يكون غافلًا عن حسه فانيًا في ربه، وتسمىٰ هذه المرتبة مرتبة المحو، أو مرتبة السكر، لأنه يغيب فيها عن الحس، وهو إذ قد غاب عن المحسوس لقي المتفرِّد بالوجود، وتُسمىٰ هذه الحال أيضًا بوحدة الشهود، فهو لم يكن هو والذات الإلهية شيئًا واحدًا، كما قال أصحاب وحدة الوجود، ولكنهم يقولون ارتفاع النفس بالمشاهدة ترفع الشخص من إدراك المحسوسات إلىٰ مشاهدة الذات العلية من غير كيفٍ ولا مَظهر.

وإنَّ مَن تصل نفسه إلىٰ هذه الدرجة تزكو، ويُكشف عنها الحجاب، وعندما يصلون إلىٰ هذا يهون التكليف، لا بل إنه توجد عبارات من هؤلاء الصوفية تُهَوِّن أمر المعاصي، فيقول في ذلك ابن عطاء الله السكندري الذي عاصر ابن تيمية: «حظ النفس في المعصية ظاهرٌ جليٌّ، وحظها في الطاعات باطنٌ خفيٌّ، وما يخفىٰ صعبٌ علاجه».

ويرىٰ أبو الحسن الشاذلي أن السيئات مِمَّن يُحِبُّ اللهَ ويحبُّه أمرُها يَهُون، ولذا يقول في دعائه:

«اجعلْ سيئاتنا سيئات مَن أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات مَن أبغضت، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك، والإساءة لا تضر مع الحب فيك، وقد أبهمت علينا الأمر لنرجو ونخاف، فآمِنْ خوفنا، ولا تخيب رجاءنا، وأعطنا سؤلنا، فقد أعطيت الإيمان من قبل أن نسألك».

وبهذا نرىٰ أن السيئة مع المحبة في حُكْمِ الملغاة، والطاعة مع البغض في حُكْمِ الملغاة، ويصرِّحون بأنَّ المعصية يُرجَىٰ العفو فيها. فيقول ابن عطاء الله السكندري في دعائه: «إلهي إن ظهرت المحاسن فبفضلك، ولك النية عليَّ، وإن ظهرت المساوئ فبعَدْلِك، ولك الحقُّ عليَّ».

ويقول المرسي أبو العباس في أدعيته: «إلهي معصيتك نادتني بالطاعة، وطاعتك نادتني بالمعصية، ففي أيها أخافك، وفي أيها أرجوك؟ إن قلت بالمعصية قابلتني بفضلك، فلم تدع لي خوفًا، وإن قلت بالطاعة قابلتني بعدلك، فلم تدَع لي رجاء، فليت شعري كيف أرىٰ إحساني مع إحسانك، أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك؟».

هذه أدعية طائفة من كبراء الصوفية الأقطاب، وهي تفرِّق بين المعصية والحسنة، ولكنها ترجو المغفرة في المعصية والقبول في الطاعة، فهي لا تُسقِط التكليف، ولكن تفتح للعصاة باب التوبة والعفو.

ولكن كان من الصوفية مَن يغالون، فيقولون: إنَّ مَن وصلَ إلىٰ مرتبة المحبة، فإنه لا فرق عنده بين المعصية والمحبة، ويقولون: إذا كانت الشريعة قد فرقت بينهما، فالحقيقة التي أساسها المحبة قد سوَّت بينهما.

ولقد جاء العامة بعد الخاصة، فكان منهم مَن فهموا أنه لا معصية ولا طاعة، وإن لم يدركوا المعاني الفلسفية التي قامت عليها الفكرة، ومنهم مَن ادَّعَىٰ أنه الشيخُ المَتْبُوع، ولم يمنعه ذلك من أن يتناول أي ممنوعٍ، فنال من المُوبِقَاتِ من غير حريجةٍ دينيةٍ تمنعه، ولا نفس لوَّامَة تدافعه، بل اتخذ التصوُّفَ ستارًا يستر به مآثمه.

وكان من العامة مَن يقولون: إنه يكفي اتِّباع الشيخ، أي: شيخ من الشيوخ أو ولي من الأولياء، حتىٰ تكون الخوارق والكرامات، فالنار لا تحرقهم، والأفاعي لا تلدغهم، وقاموا بأعمال شعبذة.

رأىٰ ابن تيمية كل هذا فحاربه، واشتد في حربه، ثم رأىٰ أن من هؤلاء الصوفية مَن اتصلوا بالتتار، ومالؤوهم علىٰ أهل الشام، وكانوا يقومون بالشعبذة أمام قازان مُتملِّقين له، آخذين هِبَاته، والمسلمون في دمشق في ذُعْرٍ من أفعاله، فأضاف هذا إلىٰ سيئاتهم في نظر ابن تيمية ما أوجب المبالغة في حربهم، وكانت له كتابات عنيفة فيهم.

❁ منزلة العلماء:

٤١- مع هذا الدِّيجور المُظْلِم كان للعلماء منزلةٌ كبيرة عند ملوك دولة المماليك البحرية؛ إذ أن هؤلاء كان فيهم نزعةٌ دينية، وكانوا[1] يحبون أن يكون حُكْمُهُم علىٰ وفق الشريعة أو يظهرون، وكان يكثر هذا التكريم بين الملوك ذوي الهمة في أوقات الشدة، وعندما يحتاجون إلىٰ نفوذ العلماء. وكان ثمَّة علماء أفذاذ ذوو شخصية قوية لا يخشون لومة لائم، ومنهم عز الدِّين [بن] عبد السلام.

---

(١) في المطبوع: كان.

فكان الظاهر بيبرس خاضعًا له، وقد قال السيوطي في ذلك: «كان بمصر مُنْقَمِعًا تحت كلمة الشيخ عزِّ الدِّين بن عبد السلام، لا يستطيع أن يخرج من أمره، حتىٰ إنه قال لما مات الشيخ: «ما استقرَّ مُلْكِي إلَّا الآن»[1].

وإذا كان الظاهر بيبرس قد أحسَّ باستقرار مُلْكِه بعد وفاة الشيخ الجليل، فإنه ما استقر ليكون ظلمًا، بل كان من العلماء من ينبِّهه إلىٰ الحق إنْ شطَّ، ويُنكِر عليه إذا لم يُطع.

وعلىٰ رأسِ هؤلاء محيي الدين النووي عالم دمشق، فإن الظاهر أراد أن يفرض ضرائب علىٰ الناس، وجدها الشيخ مرهقةً، فكتبَ إليه عدة رسائل في هذا، ويقول في إحداها: «إن أهل الشام في هذه السنة في ضيقٍ وضعفِ حال؛ بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار، وقلة الغلات والنبات، وهلاك المواشي، وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة علىٰ الرعية، ونصيحة ولي الأمر في مصلحته ومصلحتهم، فإن الدِّين النصيحة.

وقد ردَّ الظاهر ردًّا عنيفًا، واستنكر علىٰ العلماء موقفهم منه، وسكوتهم يوم كانت البلاد تحت سنابك الخيل في عهد التتار لما استولوا علىٰ الشام، وفي الجواب تهديد.

---

(١) «حسن المحاضرة» للسيوطي، ج٢، ص٦٦. (ز)

فيَردُّ عليه الشيخ ردًّا قويًّا عنيفًا، ويقول في ردِّه:

«وأمَّا ما ذُكر في الجواب من كوننا لم ننكر علىٰ الكفار كيف كانوا في البلاد، فكيف يُقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان وأهل القرآن بطغاة الكفار؟ وبأي شيء كنا نذكِّر طغاة الكفار، وهم لا يعتقدون شيئًا من ديننا؟».

ويردُّ تهديدَهُ بقول: «وأمَّا أنا في نفسي فلا يضرني التهديد، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أنَّ هذا واجبٌ عليَّ وعلىٰ غيري، وما ترتَّبَ علىٰ الواجب فهو خيرٌ وزيادة عند الله. وأفوِّض أمري إلىٰ الله، إنَّ الله بصيرٌ بالعباد، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا، وألَّا نخافَ في الله لومةَ لائمٍ، ونحن نحبُّ السلطان في كل الأحوال وما ينفعه في آخرته ودنياه».

وقد استمرت كُتُبُ الشيخ، واستمر السلطان في جِباية الضرائب، وفي سبيل ذلك جمعَ فتاوىٰ من العلماء في تأييد عمله، فاستخذوا وأطاعوه ما عدا الشيخ محيي الدين، فأحضره الظاهر، ليحمله برهبة السلطان علىٰ التوقيع، فأجابه الشيخ إجابةً عنيفةً، جاء فيها:

«أنا أعرف أنكَ كنتَ في الرِّق للأمير بندقدار، وليس لكَ مالٌ، ثُمَّ مَنَّ اللهُ عليكَ وجعلكَ مَلِكًا، وسمعتُ أنَّ عندكَ ألْف مملوكٍ، كل مملوك له حياصة من ذهب، وعندك مائة جارية، لكلِّ جارية حقٌّ منَ الحُلِيِّ، فإنْ أنفقتَ ذلك كله، وبقيتْ مماليكك بالبنود الصدف بدلًا

من الحوائص، وبقيتِ الجواري بثيابهن دُونَ الحُلِيِّ، أفتيتُكَ بأخذِ المال من الرَّعية».

فغضبَ الظاهر، وقال: اخرج من بلدي (دمشق)، فقال: «السمع والطاعة»، وخرج إلىٰ نَوَىٰ بالشام، فقال الفقهاء: إنَّ هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن نقتدي به، فأَعِدْهُ إلىٰ دمشق، فرسم برجوعه، فامتنع الشيخ، وقال: لا أدخلها والظاهر بها، فمات الظاهر بعد شهر[1]. وقد رأىٰ ابنُ تيمية الظاهرَ وعوده أخضر، ورأىٰ الشيخ محيي الدين النووي.

ولهذا قد رأينا ابن تيمية يقف من الناصر موقف عز الدين بن عبد السلام وموقف محيي الدين النووي، فامتدت به سلسلة العلماء المكافحين، وقد زاد عليهما أنه امتشق السيف للجهاد، وأنه نزل به البلاء بسبب آرائه في الدِّين، فمات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحبس مُضَيَّقًا عليه، فرضي اللهُ عنه، وأكرمَ مثواه، وجزاه عن العِلم والإسلام خير الجزاء.

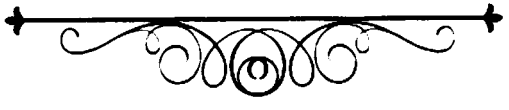

(١) راجع المكاتبات والمناقشات بكتاب حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص٦٧ إلىٰ ٧١. (ز)

ترجمة ابن تيمية

من كتاب كنوز الأجداد

للأستاذ محمد كرد علي

ترجمة ابن تيمية[1]

ولد بحرَّان سنة إحدىٰ وستين وستمائة، وقدم مع والده وأهله إلىٰ دمشق، وكانوا قد خرجوا من بلاد حرَّان مهاجرين بسبب جور التتار وقدموا دمشق سنة سبع وستين.

طلبه للعلم

فسمع الحديث من أئمته في دمشق، وسمع «مسند أحمد» مرات، و«معجم الطبراني الكبير»، والكتب الكبار والأجزاء.

وعُني بالحديث، وقرأ بنفسه الكثير، ولازم السماع مدة سنين، ونسخ وانتقىٰ، وكتب الطباق والأثبات، وتعلم الخط والحساب في المكتب[2]، واشتغل بالعلوم وحفظ القرآن، وأقبل علىٰ الفقه، وقرأ أيامًا في العربية علىٰ ابن عبد القوي ثم فهمها وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتىٰ فهمه، وبرع في النحو وأقبل علىٰ التفسير إقبالًا كليًّا حتىٰ حاز فيه قصب السبق، وأحكم أصول الفقه، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة، فعجب الفضلاء من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه.

ذاك ما قاله من ترجموا له في نشأته.

---

(١) من كتاب كنوز الأجداد ص ٣٦٠- ٣٦٩ .

(٢) في المطبوع: الكتب.

أخلاقه

أما أخلاقه فقالوا:

إنه نشأ في تصوُّن[١] تام، وعفاف وتألُّه، واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزل على ذلك خُلُقًا صالحًا، برًّا بوالديه تقيًّا ورِعًا عابدًا ناسكًا صوامًا قوامًا، ذاكرًا لله تعالىٰ في كل أمر، رجّاعًا إلىٰ الله تعالىٰ في سائر الأحوال والقضايا، وقّافًا عند حدود الله تعالىٰ وأوامره ونواهيه، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، «فارغًا من شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذة له في غير نشر العلم وتدريسه، عرض عليه منصب قاضي القضاة ومشيخة الشيوخ[٢] فلم يقبل».

وقبل وظائف والده في التدريس وله إحدىٰ وعشرون سنة.

وكان والده من كبار الحنابلة وأئمتهم، ودرس هو بعده، فاشتهر أمره وبَعُدَ صيته في العالم، وما أتىٰ له ثلاثون سنة حتىٰ كان من أعظم علماء عصره، بل أعظم عالم في عصره، لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروىٰ من المطالعة، ولا تمل من الاشتغال، ولا تكِلّ من البحث، وقلَّ أن يدخل في باب من أبواب العلوم إلا وفتح له من ذلك الباب أبواب، واستدرك أشياء في ذلك العلم علىٰ حذّاق أهله.

وكان يحضر المجالس والمحافل في صغره، فيتكلم ويناظر

---

(١) في المطبوع: تصوف. والإصلاح من العقود الدرية.

(٢) في المطبوع: منصب قضاء القضاة ومشيختي الشيوخ.

ويفحم الكبار، ويأتي بما يحار منه أعيان البلد، وشرع في الجمع والتأليف وله نحو سبع عشرة سنة.

قال الحافظ الزملكاني: كان إذا سئل عن فن من الفنون ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا لا يعرف مثله.

كان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوب إليه. وكانت له اليد الطولىٰ في حسن التصنيف، وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين.

وقالوا فيه: وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجُمَع علىٰ كرسي مِن حفظه، فكان ما يقوله من غير توقف ولا تلعثم، وكذا كان يورد الدروس بتؤدة وصوت جهوري فصيح.

وانتهت إليه الإمامة في العلم، والعمل، والزهد، والورع، والشجاعة، والكرم، والتواضع، والحلم، والأناة، والجلالة، والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق، والأمانة، والعفة، والصيانة، وحسن القصد، والإخلاص، والابتهال إلىٰ الله تعالىٰ، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسك بالأمر، والدعاء إلىٰ الله تعالىٰ، وحسن الأخلاق، ونفع الخَلْق والإحسان إليهم.

وكان رحمه الله سيفًا مسلولًا علىٰ المخالفين، وشجًىٰ في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإمامًا قائمًا ببيان الحق ونصرة الدين، طنَّتْ بذكره الأمصار، وضنَّتْ بمثله الأعصار.

وقال الذهبي: إنه صار من أكابر العلماء في حياة شيوخه.. ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسَّرَ كتاب الله تعالىٰ مدة سنين من صدره أيام الجمع، وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مئتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهىٰ، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه مما لا يُلْحَقُ فيه، وأما نقلُه للفقه ولمذاهب الصحابة والتابعين فضلًا عن مذاهب الأربعة، فليس فيه نظير، وأما معرفته بالملل والنحل، والأصول والكلام فلا أعلم له فيه مثيلًا، ويدري جملة صالحة من اللغة، وعربيته قوية جدًّا، وأما معرفته بالتاريخ والسِّيَر فعجب عجيب.

قال: فإن ذُكر التفسير، فهو حامل لوائه، وإن عُدَّ الفقهاء، فهو مجتهدهم المطلق، وإن حضر الحفاظ نطق وخرسوا، واستُزِيد وأُبلِسوا، واستغنىٰ وأفلسوا، وإن سُمِّي المتكلمون، فهو فَرْدُهم وإليه مرجعهم، وإن لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة، فلَّسَهُمْ[1]

(١) في المطبوع: فلسفهم.

وبخسهم، وهتك أستارهم، وكشف عوارهم.

وله يد طولىٰ في معرفة العربية والصرف واللغة.

وهو أعظم من أن تصفه كلمي، أو تبينه إشارة قلمي.

وقال في مكان آخر: وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفةٌ بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، وبالصحيح وبالسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهىٰ في عزوه إلىٰ "الكتب الستة" و"المسند" بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث، ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف فيه من بحر، وغيره يغترف من السواقي.

وقال أيضًا: كان يقضىٰ منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدل ورجح، وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه.

قال: وما رأيت أسرع انتزاعًا للآيات الدالة علىٰ المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضارًا للمتون وعزوها منه، كأن السنة نُصب عينيه وعلىٰ طرف لسانه، بعبارة رشيقة وعين مفتوحة...

ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلىٰ التقصير فيه، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلىٰ التغالي فيه، وقد أُوذيتُ من الفريقين من أصحابه وأضداده.

وكان أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلىٰ شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، رَبْعَة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت فصيحًا، سريع القراءة، تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم...

وقال: تعتريه حدة في البحث وغضب تزرع له عداوة في النفوس.

كتب الذهبي إلىٰ السبكي يعاتبه بسبب كلام وقع منه في حق ابن تيمية فأجابه:

وأما قول سيدي في الشيخ تقي الدين، فالمملوك يتحقق كبير قدره، وزخارة بحره، وتوسعه في العلوم النقلية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهاده، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف، والمملوك يقول ذلك دائمًا، وقدره في نفسي أكثر من ذلك وأجل، مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه، لا لغرض سواه، وجريه علىٰ سَنَن السلف، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفىٰ، وغرابة مثله في هذا الزمان، بل من الزمان.

وقال ابن سيد الناس: إنه برَّز في كل فن علىٰ أبناء جنسه، ولم ترَ عينُ مَن رآه مثلَه، ولا رأت عينه مثل نفسه.

محنة ابن تيمية

بدأت محنة شيخ الإسلام لما تمت أدواته وشاعت فتاويه في مسائل وجد منها حساده مدخلًا لهم، فناقشوه وكفّروه وبدّعوه، واعتقله الولاة وغرّبوه.

وكان منذ سنة تسع وتسعين[1] ظهرت شخصيته السياسية في البلاد، وبدأ تعويل الأمة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة (غازان)، فقام بأعباء الأمر بنفسه، واجتمع بنائبه، وجرأ على المغول، وتوجّه بعد ذلك بعام إلى الديار المصرية لما اشتد الأمر بالشام من المغول، واستصرخ بأركان الدولة وحضّهم على الجهاد، ثم عاد بعد أيام إلى دمشق، وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك إلى ورود الخبر بانصرافهم، وقيامه القيام المحمود في وقعة (شقحب) سنة اثنتين وسبعمائة، واجتماعه بالخليفة والسلطان وأرباب الحل والعقد، وتحريضهم على الجهاد.

ثم توجهه في آخر سنة أربع وسبعمائة لقتال الكسروانيين واستئصال شأفتهم.

ثم مناظرته للمخالفين في سنة خمس في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم، وظهوره عليهم بالحجة والبيان،

---

(١) أي: وستمائة.

ورجوعهم إلىٰ قوله طائعين [و] مكرهين.

ثم توجهه بعد ذلك في السنة المذكورة إلىٰ الديار المصرية، في صحبة قاضي القضاة الشافعية، وعقْدهم له مجلسًا حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة، ثم حبسه في الجب بقلعة الجبل، ومعه أخواه سنة ونصفًا.

ثم إخراجه بعد ذلك، وعقدهم له مجلسًا ظهر فيه علىٰ خصومه، ثم عقدهم له مجلسًا سنة سبع لكلامه في طريقة الاتحادية، ثم الأمر بتسفيره إلىٰ الشام علىٰ البريد، ثم الأمر برده من مرحلة وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفًا، ثم إخراجه منه وتوجهه إلىٰ الإسكندرية، وجعله في برج، حبس فيه ثمانية أشهر.

ثم توجهه إلىٰ مصر واجتماعه بالسلطان في مجلس ضم القضاة وأعيان الأمراء، وإكرامه له إكرامًا عظيمًا ومشاورته له في قتل بعض أعدائه، وامتناع الشيخ عن ذلك.

ثم سُكناه القاهرة، ثم توجهه إلىٰ الشام، ثم ملازمته بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وإفتاء الخلق.

إلىٰ أن تكلم بمسألة الحلف بالطلاق، فأشار عليه بعض القضاة بترك الإفتاء بها في سنة ثماني عشرة[1]، فقبِل إشارتَه دفعًا للفتنة، ثم

---

(١) وسبعمائة.

ورد كتاب السلطان بعد أيام بالمنع من الفتوىٰ بها، ثم عاد الشيخ إلىٰ الإفتاء بها وقال: «لا يسعني كتمان العلم».

وبقي كذلك مدة إلىٰ أن حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا، ولم يزل علىٰ عادته من الاشتغال والتعليم.

إلىٰ أن ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال إلىٰ قبور الأنبياء والصالحين، كان أجاب به من نحو عشرين سنة، فشنّعوا عليه بسبب ذلك، وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في القلعة، فأخليت له قاعة حسنة، وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه، فكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة، وظهر بعض ما كتبه واشتهر، وآل الأمر إلىٰ أن مُنع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما عنده من الكتب، ولم يتركوا دواةً ولا قلمًا ولا ورقةً، وكتب عقيب ذلك بفحم. وكان إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم[1]، وبقي أشهرًا علىٰ ذلك، وأقبل علىٰ التلاوة والعبادة والتهجد حتىٰ أتاه اليقين.

(١) وورد في بعض المصادر: من أعظم النعم، وهذه الأخيرة أوجه من جهة المعنىٰ، لأن الكتب أخرجت فاطلع عليها الفقهاء وقرئت رغمًا عن أعدائه، كما وضحه الشيخ في مناسبة أخرىٰ.

هذا مجمل ما قيل في حال[1] شيخ الإسلام، ومع ما حاول أعداؤه أن ينغصوا عيشه، دأب في كل زمن على التأليف، فألف ثلاثمائة مجلد وكلها في الشرع، وفي حل مسائل عويصة من الدين، نقرأ فيما وصلنا منها مثالًا من علمه النفيس، وعمله الذي عقمت القرون أن يأتي رجل بما يماثله.

كثرَتْ تآليفُه، لأنه كان يؤلف من صدره، حفِظَ الكتاب والسنة وما دُوِّنَ في شروحهما، وما قاله العلماء في تفسيرهما، وقد ساعدته كثرة محفوظه، وفيض خاطره، وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يُكتب لعالم مثلُه في موضوعه، ولو لم يكن له إلا «منهاج السنة» لكفاه على الأيام فخرًا لا يبلى، ففيه مثال من علمه وقوة حجته، ومعرفته بالملل والنحل، وإذا قلنا: إنه لم يؤلَّفْ نظيرُه في الردّ على المخالفين لأهل السنة، لصدّقنا كل منصف من أهل القبلة.

وكتاب «منهاج السنة» من أصح الشهادات على علو كعبه في معرفة الشرع وما تقلَّب عليه، وما حاول بعض أهل الأهواء من العبث به، وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الإسلام، وتاريخ الملل والنحل.

ولو ادعينا: أنه لم يأت عالم [مثله] يعرف ما طرأ على الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة ويومًا يومًا ما قدر أحد على رد دعوانا.

---

(١) في المطبوع: حالة.

رد على المعتزلة، وعلىٰ الجهمية، وعلىٰ الشيعة، وعلىٰ الفلاسفة، وعلىٰ غيرهم. فجاء بالعجيب من الآراء التي استخرجها من روح الشريعة واستنبطها ببعد نظره، وشدة بحثه، فما كُتب لإمام من الأئمة في عصره وبعد عصره أن يناقضه ويرد أقواله.

وعلىٰ كثرة ما حرص الشافعية للتفوق علىٰ هذا الحنبلي، وإقناع العلماء بفتاويهم وتزييف فتاويه= ما كانوا معه إلا كالأطفال أمام الرجال، وفي مقدمتهم المشايخ بنو السبكي، [مع] [1] ما كان لهم في دولة مصر والشام من السلطان.

اعتقلوه في القاهرة والإسكندرية أشهرًا لم تمنعه عن التأليف والتدريس والوعظ، وما حالوا دون إعجاب المنصفين من العلماء به وقول الحق فيه، ولا دون تقديس الأمة له يوم موته، وهي التي عرفته سبّاقًا إلىٰ كل خير يقصد منه صلاح دنياها ودينها، وكان له في انتصار دولة المماليك علىٰ التتار اليد الطولىٰ التي لا تُنكَر، ودل أنه في السياسة كما هو في الدين إمام عظيم، وأن الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره.

وما سُمِع لأحد علماء الدين في عصره صوتٌ مثلُ صوته، في إحقاق الحق، ونصرة سلطان الإسلام.

---

(١) في المطبوع: و، ولعل الأوفق ما أثبتنا.

ونسبه قوم إلىٰ أنه يسعىٰ في الإمامة الكبرىٰ، فإنه كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه، فكان ذلك مؤكدًا لطول سجنه.

ولم يرض يوم عَقد الصلح مع التتار أن يتخلىٰ عن الأسرىٰ من النصارىٰ واليهود، فقال: "إنهم ذمتنا ولا بد من إرجاعهم إلىٰ ديارهم".

وكم له من مثل هذه الحسنات التي أصبحت كأنها قواعد من قواعد الشرع والسياسة، لا يستغني عنها خليفة ولا سلطان.

إن استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال إلىٰ قبور الأنبياء والأولياء والصالحين، وفي غير ذلك من البدع التي أقروها، والشريعة تنكرها إنكارًا ظاهراً! ـ كما يفهم من آي الكتاب العزيز، وهدي الصحابة والتابعين والعلماء العاملين، واغتباطهم بما ظنوه ظفرًا لهم، في تلك المعركة الشديدة - قد كان من نتائجه مسخ الشريعة عند المتأخرين، وبقيت الأمة علىٰ إقرار الخرافات والبدع، إلىٰ يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة، وكأنهم اخترعوا شريعة أخرىٰ، استمالوا بها العوام ومزجوها بالشريعة الأصلية، رغم أنوف الخواص، فركبوا عار الأبد، ولُعنوا بما بدّلوا وحرّفوا، هو لم يأت ببدع، وهم سلّموا بكل البدع، فكان العالم العامل حقًّا، وكانوا عبَدَة أوهام وضلالات.. أراد شرعًا نقيًّا من الأدران، وهم تساوت عندهم النقاوة والنفاية، لأنهم يقصدون بمناقشاتهم الظهور، وكسب قلوب الغوغاء علىٰ أي حال.

لو عمّتْ دعوة ابن تيمية -ولدعوته ما يماثلها في المذاهب الإسلامية ولكنها عنده كانت حارة، وعند غيره فاترة- لسلِمَ هذا الدين من تخريف المخرفين علىٰ الدهر، ولما سمعنا أحدًا في الديار الإسلامية يدعو لغير الله، ولا ضريحًا تشد إليه الرحال بما يخالف الشرع، ولا يعتقد بالكرامات علىٰ ما ينكره دين أتىٰ للتوحيد لا للشرك، ولسلامة العقول لا للخبال والخيال.

كان ابن تيمية في النصف الثاني من عمره سراجًا وهاجًا أطفأ بعلمه وعمله شهرة أرباب المظاهر من القضاة والعلماء، وكان الصدر المقدم كلّما دخل في موضوع ديني أو سياسي، وعبثًا حاول بعض الشافعية والمالكية أن يسلموه للعامة علَّهم يقتلونه، فما استطاعوا أكثر من حجز حريته أشهرًا في سجن، وكان الملوك يحمونه من تعصب خصومه ويعرفون قدره.

وكان الملك الناصر صاحب مصر يرفع من مقام ابن تيمية كثيرًا، وأراد أن يقتل من أفتوا بخلعه من العلماء، وحثه علىٰ أن يفتيه في قتل بعضهم، فأنكر أن ينال أحدًا منهم بسوء، وقال له:

◊ إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم.

فقال له: إنهم آذوك وأرادوا قتلك مرارًا.

فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل، ومن آذىٰ الله ورسوله فالله ينتقم منه، أنا لا أنتصر لنفسي.

وما زال به حتىٰ حلم عنهم السلطان وصفح.

وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية.. حرَّضْنا عليه، فلم نقدر عليه، وقدر علينا، فصفح عنا وحاجج عنا.

فعَل هذا ابن تيمية وخصومه يقولون: يجب التضييق عليه إن لم يقتل، وإلا فقد ثبت كفره.

ونحن نقول: إن هذا هو الفرق العظيم بين أخلاقه وأخلاق مشاكسيه، هم كانوا ممن يهتمون لدنياهم ومظاهرهم، وهو كان يهتم للأخرىٰ فقط، وشتان بين المطلبين.

كان يهتم لنشر الدين والقضاء علىٰ البدع بقلبه ولسانه وقلمه، وهمهم أن يرضىٰ عنهم السلطان، فيبقيهم في مناصبهم ويستميلوا العامة فيقبّلوا أيديهم.

هو يقول لنائب قلعة دمشق في فتنة غازان: لو لم يبق فيها إلا حجر واحد، فلا تسلمهم ذلك إن استطعت.

فسلمت القلعة من أذىٰ التتار، وكان يدور كل ليلة علىٰ الأسوار يحرض الناس علىٰ الصبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط.

وكذلك كان شأنه في وقعة شقحب، وكان يعِد المسلمين بالنصر هذه المرة، ويؤكد كلامه في ذلك حتىٰ نُصروا علىٰ عدوهم.

وفي قتال الجرديين والكسروانيين، أبان أيضًا عن سياسة رشيدة، وأرجع بعض الناشزين من أهلها إلىٰ الإسلام.

من أهم المسائل التي حاول حساد ابن تيمية أن ينالوا بها منه: مسألة شد الرحال إلىٰ قبور الصالحين وغيرهم.

قال ابن كثير[١]: إن جواب ابن تيمية في هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء [و] الصالحين، وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر إلىٰ مجرد زيارة القبور.

وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرىٰ.

والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل بل يستحبها، ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلىٰ هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا، ولا قال: إنها معصية، لا حكىٰ الإجماع علىٰ المنع منها، ولا هو جاهل قول الرسول: "زوروا القبور فإنها تذكّركم الآخرة".

ثار عليه مرة جماعة من الحسدة، وشكوا منه أنه يقيم الحدود، ويعزر، ويحلق الرؤوس أيضًا، وتكلم هو فيمن يشكو منه ذلك وبيَّنَ خطأهم.

---

(١) البداية والنهاية ١٨/ ٢٧٠.

وراح مرة في ثلة من أصحابه ومعهم حجّارون، وأمرهم بقطع صخرة كانت بنهر قلوط بدمشق تزار وينذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيمًا.

قال ابن كثير[١]: وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه بابن عربي وأتباعه، فحُسِد على ذلك وعُودِي، ولم يصلوا إليه بمكروه، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه.

قال: ولم يزل الشيخ ملازمًا لإشغال[٢] الناس في العلوم، ونشر العلم، وتصنيف الكتب، وإفتاء الناس بالكلام، والكتابة المطولة، والاجتهاد في الأحكام الشرعية.

ففي بعض الأحكام يفتي بما أدىٰ إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم.

وله اختيارات كثيرة في مجلدات عديدة أفتىٰ فيها بما أدىٰ إليه اجتهاده، واستدل علىٰ ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف.

---

(١) البداية والنهاية ١٨/ ٤٨ .

(٢) في المطبوع: لاشتغال.

رجل هذا شأنه يكفره القاضي المالكي، ويحاول قتله - والتعزير عند المالكية القتل -، ولا تشتفي نفوس بعض العلماء والسياسيين حتىٰ ينادىٰ بدمشق: من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله خصوصًا الحنابلة.

وجمعوا الحنابلة من صالحية دمشق وغيرها، وأشهدوا علىٰ أنفسهم أنهم علىٰ معتقد الإمام الشافعي.

قال الصلاح الصفدي[1]: كان كثيرًا ما ينشدني:

تَموتُ النفوس بأوصابها ... ولم يدرِ عُوَّادُها ما بها

وما أنصفتْ مهجةٌ تشتكي ... أذاها إلىٰ غير أحبابها

وأنشد علىٰ لسان الفقراء (جماعة الطرق):

واللهِ ما فَقرُنا اختيارُ ... وإنما فقرنا اضطرارُ

جماعةٌ كلُّنا كُسالىٰ ... وأكلُنا ما له عِيارُ

تَسمعُ منا إذا اجتمعنا ... حقيقةً كلها فَشَارُ

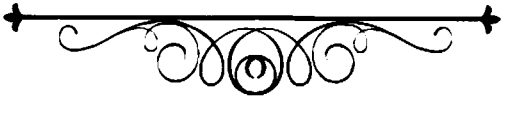

(١) الوافي بالوفيات ٧/ ١٥.

النشأة العلمية عند ابن تيمية

وتكوينه الفكري

بقلم

هنري لاوست

النشـــأة العلميـــة عند ابن تيميـــة وتكوينـــه الفكـــري[1]

إذا أردنا فهم عالم من علماء الكلام أو فيلسوف من الفلاسفة، أو بالجملة أيّة شخصية علمية أسهمت بإبداعها الفكري الخاص في التراث الثقافي العام، وجب علينا قبل كل شيء أن نبدأ بدراسة الإنسان ذاته، وأن نتعرف عليه كما هو في حقيقة أمره.

ولكي يتيسر لنا الولوج في سرائر هذه المعرفة الذاتية للإنسان، ينبغي أولًا أن ندرس المحيط العائلي الذي نما فيه والأصل الجنسي الذي انحدر عنه، وأن نتتبع المراحل المختلفة لأطوار نشأته وحياته، وأن نتساءل عن ميوله العقلية والأدبية، وتكوينه الفكري والعلمي. وهكذا الشأن فيما يخص معرفتنا بالعالم الكبير الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية، الذي لم يزل أثر أفكاره وآرائه حيًّا عبر الأجيال حتىٰ أيامنا هذه.

لدينا في الوقت الحاضر مصادر من الطراز الأول عن حياة الشيخ تقي الدين؛ فنحن مدينون إلىٰ محمد بن عبد الهادي في كتابه «العقود الدرية» حيث أبقىٰ لنا ترجمة مطولة عن حياة الشيخ تقي الدين، كما

---

(١) أسبوع الفقه الإسلامي ومهرجان الإمام ابن تيمية ص٨٢٩-٨٤٣.

نحن مدينون أيضًا إلىٰ مؤلفٍ آخر جاء بعده بقرنين هو الشيخ المرعي في كتابه «الكواكب الدرية»[١]، هذا فضلًا عن عددٍ وافرٍ من التراجم المختصرة التي يعثر عليها الباحث في ثنايا كتب الأحداث والوقائع[٢]، ثم يلي مباشرةً بعد هذه المصادر الآنفة الذكر تلك الوثيقة الهامة بقلم المؤرخ العظيم المعاصر لابن تيمية الشيخ إسماعيل ابن كثير في كتابه الجليل «البداية والنهاية».

إن هذا السفر التاريخي القيم ليس سجلًّا عامًّا لأحداث الخلافة فحسب، بل هو أيضًا عرضٌ أمينٌ لوقائع عهد المماليك، وخاصةً لعهد محمد بن قلاوون الذي عاش فيه أحمد ابن تيمية، وابن كثير هذا كان شافعيًّا سلفيًّا في الوقت نفسه معجبًا جدًّا بابن تيمية، وهذا الإعجاب يتفق تمامًا مع صدقه وإخلاصه لمذهبه ذاته، فنحن لا نفاجأ إذا وجدنا في زحمة الوقائع المتتابعة التي تعرضها علينا صفحات «البداية» ترجمة مطولة وحافلة للشيخ تقي الدين.

إن هذه الترجمة الشخصية - وهي في نظرنا لا تُقدَّر بثمن - لهي قبل كل شيء صنع مؤرخ موضوعي يتوخىٰ الصدق والدقة في سرده للأحداث والوقائع.

---

(١) ومن الكتب المفردة المهمة كتاب الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية لأبي حفص البزار، طبع مرارًا.

(٢) في كتاب الجامع لسيرة شيخ الإسلام وتكملته جمعٌ لهذه التراجم المتفرقة من سنة ٧٠٠ إلىٰ سنة ١٣٠٠.

وبعد ذلك كله، ولكي نعرف أحمد بن تيمية معرفةً حقيقيةً، أي لكي نتعرف عليه كما هو في ذاته، ينبغي بديًا أن نُوَلِّيَ وجهنا شطر نشأته العقلية والأدبية. إن المصادر المختلفة المتقدمة الذكر تعطينا فكرةً مرضية فيما يخص الظروف الخارجية والاجتماعية لتكوين ابن تيمية الأخلاقي والمعنوي؛ فهكذا نعلم أن الشيخ قد ولد في حران سنة ٦٦١ للهجرة، واستقر في دمشق سنة ٦٦٧، وفي هذه المدينة تلقىٰ تربيته الأولىٰ. كان أبوه عبد الحليم المعلم الأول له. وعبد الحليم هذا الذي كان يدير المدرسة السُّكَّرِيَّة للحنابلة باشر تعليم ابنه القرآن الكريم، والحديث الشريف، ومبادئ الفقه، وفي عام ٦٨٢ للهجرة تُوفي الشيخ عبد الحليم، وترك لابنه الشاب تولي زمام المدرسة السكرية بعده.

ويمكن القول أيضًا بأن أم الشيخ تقي الدين: سِتَّ النعِم بنت عبد الرحمن الحرانية التي ظلت علىٰ قيد الحياة حتىٰ سنة ٧١٦ - أي حتىٰ فترة متقدمة من حياة ابن تيمية - قد تركت في نفسيته أبلغ الأثر بسبب تقواها العميق، حيث ما فتئت ذكراها حية في دمشق زمنًا طويلًا.

وكذلك نعلم أيضًا أن أحمد بن تيمية كان أستاذُه الأكبر أولَ قاضي القضاة الحنابلة في دمشق الشيخ شمس الدين عبد الرحمن المقدسي الذي تولىٰ هذا المنصب سنة ٦٦٣ إثر الإصلاح القضائي الذي أحدثه بيبرس، وظل محافظًا عليه سنين طويلة.

ومما تجدر ملاحظته في هذا الشأن أن أحمد بن تيمية لم يرحل لطلب العلم أثناء الفترة الأولىٰ من نشأته العلمية كما هي السنة المعتبرة في العرف الإسلامي، بل كان يقتصر علىٰ حضور مجالس العلم في دمشق مترددًا علىٰ حلقات الفقه والحديث والتفسير، مستمعًا إلىٰ عددٍ كبيرٍ من العلماء. وكذلك أبقىٰ لنا - مثلما فعل غيره من رجال العلم - معجمًا لأسماء الشيوخ الذين تلقىٰ عليهم العلم وأجازوه بالرواية عنهم، ولكن بعض أسماء هؤلاء الأستاذة معروفة لدينا بفضل أصحاب التراجم الذين ذكرناهم سابقًا، بواسطة دراسة الأسانيد التي حوتها رسالة صغيرة ثمينة جدًّا - كشأن كل ما كتبه - أعني مجموعة «لأربعين حديثًا»[1].

إن هذه المعرفة عن نشأة ابن تيمية العلمية وتكوينه العقلي لهي إلىٰ حدٍّ ما معرفة خارجية مهما يكن خطرها ولزومها، لا يمكن بطبيعة الحال أن نقف عندها. فينبغي أن نطمح برغائبنا نحو معرفة أرقىٰ وأكثر عمقًا وشمولًا؛ لأنها معرفة ذاتية وباطنية، ولكي تحقق هذه الرغائب يتحتم علينا أن تكون بداية انطلاقنا هي آثار الشيخ نفسه، أعني أن تكون كتبه ذاتها موضوع تحليلنا وتأملنا.

والطريقة المثلىٰ في ذلك أن تتوفر لدينا المعرفة الزمنية التامة لجميع مصنفات شيخ الإسلام، وهذا الأمر ما زلنا بعيدين عنه في

---

(١) وهي في مجموع الفتاوىٰ ١٨/ ٧٦ - ١٢١.

الوقت الحاضر مع أسفنا الشديد[١]. فنحن لا نستطيع حتىٰ الآن أن نجرد ثبتًا تاريخيًا لمؤلفات ابن تيمية بحسب ترتيبها الزمني؛ ثبتًا جامعًا تامَّ الأجزاء مستوفي الحلقات، ولكنه مهما يكن في الأمر فهناك بعض التواليف لشيخ الإسلام يمكن معرفة تأريخها وظروفها كاملًا، وهذا كله بلا شك مما يُفضِي بنا إلىٰ الاطلاع علىٰ نفسية ابن تيمية وتكوينه الفكري.

فنحن نعلم مثلًا أن كتابه الأول[٢] «الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول» أُلِّفَ في دمشق عام ٦٩٣ للهجرة، وذلك بسبب قضية عَسَّاف النصراني[٣] التي سجل لنا نبأها ومناسبتها صاحب «البداية» متابعًا في ذلك الشيخ البرزالي.

وكذلك سنة ٦٩٨ أنشأ شيخ الإسلام «الرسالة الحموية الكبرىٰ» التي تتعلق بمسألة الصفات. وفي نفس هذه الحقبة من الزمن كتب

---

(١) كلام المؤلف هذا قبل أكثر من خمسين عامًا، وما زال هذا البعد حتىٰ يومنا هذا، وإن كان بدرجة أقل.

(٢) في الجزم بأنه أول مؤلفاته نظر، فقد ثبت أنه ألف قبل هذا التاريخ منسكًا في الحج، ونرجح أنه ألف شرح العمدة قريبًا من هذا التاريخ، وكذلك تنبيه الرجل العاقل قبل الصارم وغير ذلك.

(٣) ليس عسّافا هو النصراني، بل هو عساف بن أحمد بن حجي، أمير آل علي، وهو الذي أجار النصراني السابّ. ينظر المقتفي للبرزالي ٢/ ٣٦٣ وغيره، وقد وقع الوهم في ذلك لابن كثير في البداية والنهاية وتبعه غالب المتأخرين. وكتب الباحث محمد براء ياسين مقالا في ذلك فليراجع.

شيخنا رسالة أخرىٰ في العقائد هي من خير تواليفه: «العقيدة الوسطية» وقد ظل محافظًا علىٰ مبادئه طيلة حياته جميعًا.

وفي فترة الأزمة المغولية الممتدة من سنة ٦٩٩ إلىٰ سنة ٧٠٣ والتي كانت دمشق أثناءها مهددة بالاحتلال الأجنبي أصدر ابن تيمية فتاواه المشهورة التي ينتقد فيها سياسة المغول ويحث مواطنيه علىٰ قتالهم.

وكان ابن تيمية عام ٧٠٤ للهجرة قد بعث برسالة إلىٰ الشيخ نصر الدين المَنْبَجي - أحد أتباع الإمام الكبير الشيخ محيي الدين ابن عربي، والمرشد الروحي لبيبرس الجاشنكير. ففي هذه الرسالة الرقيقة من حيث أسلوبها، الصارمة من حيث معناها يلوم ابن تيمية بجرأة الشيخ المنبجي علىٰ التفاف جمهرة كبيرة من الاتحادية حوله. وفي هذه الرسالة أيضًا يذكر ابن تيمية بأنه قد كان ألَّف كتابًا ضخمًا في الرد علىٰ الاتحادية ويبدي رغبته في إرسال هذا الكتاب إلىٰ الشيخ المنبجي نفسه.

ومن جهةٍ أخرىٰ بدأ شيخ الإسلام الحملة ضد الأحمدية الرفاعية سنة ٧٠٥ هجرية في دمشق، وقد أبقىٰ لنا رسالة مطولة في هذا الشأن. ففي هذه السنة قبيل رحلته إلىٰ مصر كان ابن تيمية في دور النضوج والكمال، لقد جاوز الأربعين من عمره، وأصبح مالكًا زمام مذهبه، وعَلَمًا في فن النقاش والجدل.

وإن الفترة الطويلة التي قضاها في مصر من سنة ٧٠٥ حتىٰ سنة ٧١٢ كانت له فرصة إنتاجٍ خصيبٍ لأعظمِ مؤلفاته. فإلىٰ هذه الحقبة تنتسب «الفتاوىٰ المصرية» التي يُقِيم فيها الدليل علىٰ اطلاعه الواسع ومعرفته الشاملة لعلوم الفقه، واستقلاله الواضح في التفكير.

ونستطيع أن نذكر في هذا المقام أيضًا شرحه علىٰ العقيدة الأصفهانية الذي أملاه سنة ٧١٢ للهجرة، والكتاب الضخم الذي ألَّفه في الإسكندرية[1] ردًّا علىٰ المنطقيين.

إن هذا السِّفْرَ الجليل كما هو بادٍ من عنوانه يقصد قبل كل شيء الرد علىٰ الأفكار والنظريات المنطقية اليونانية، ولكن الغرض منه بيان أن معظم أخطاء الفلاسفة في الإلهيات صادر عن خطأ أفكارهم في المنطق. ونحن نعلم بفضل هذا الرد علىٰ المنطقيين أن ابن تيمية كان قد اهتم كثيرًا أثناء إقامته في الإسكندرية والقاهرة بالتأريخ الفكري لحركة الموحدين في المغرب.

وهناك كتاب آخر من الأهمية بمكان هو «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» قد ألَّفه في آخر إقامته في مصر، أو بُعيد

---

(١) الظاهر أن ابن تيمية ألف هذا الكتاب (أو حرره علىٰ الأقل) بعد رجوعه إلىٰ دمشق أي بعد سنة ٧١٢ ، فقد صرح فيه أنه حرره في دمشق، وقد أحال فيه إلىٰ كتبه المتأخرة كالمنهاج والجواب الصحيح وغيره.

رجوعه إلىٰ دمشق[١]. إن هذا الكتاب الجليل لهو أحد الآثار الإسلامية الكبرىٰ في القانون الدولي، وأنا من جانبي لا أتردد مطلقًا في وضعه في مستوىٰ «الأحكام السلطانية» للماوَرْدي.

والفترة الأخيرة من حياة الشيخ تقي الدين منذ عودته إلىٰ الشام حتىٰ وفاته بقلعة دمشق هي علىٰ جانب عظيم من الخطورة والأهمية بالنسبة إلىٰ وفرة الكتب التي أنتجها في هذه المدة. ومن جملة هذه الكتب المتعددة المختلفة المواضيع لن نذكر إلا كتابًا واحدًا، إلا أنه حقيقةً أثرٌ خالدٌ في الثقافة الإسلامية العربية، جدير بكل إعجابنا؛ ذلك هو كتاب «منهاج السنة» الذي أنشأه في غالب الظن بين سنة ٧١٦ وسنة ٧٢٠ للهجرة، أي في هذه الظروف التاريخية الخاصة التي أصبحت فيها دعوة شيعة العراق مصدرَ قلقٍ وخطرٍ لذوي السلطة من المماليك. إن كتاب «منهاج السنة» هو في الواقع بمثابة ردٍّ علىٰ «منهاج الكرامة في معرفة الإمامة» للشيخ المُطهَّر الحِلِّي الذي كان رئيسَ الاثني عشرية في عهد الخان خُودبَندا.

ويعتبر كتاب «منهاج السنة» بحق أحد الآثار الفكرية الكبرىٰ للمناقشات المذهبية العميقة بين أهل السنة والشيعة، وهو في نظرنا أثرٌ علميٌّ فذٌّ لا يُقدَّر بثمنٍ للاطلاع علىٰ تكوين ابن تيمية الفكري بالنسبة

(١) كنت استظهرت ذلك في تحقيقي لكتاب السياسة الشرعية، وأنه كتبه تقريبًا سنة ٧٠٩، ثم وقفت مؤخرًا علىٰ نسخة خطية قديمة كتبت سنة ٧٠٥، ما يعني أنه ألفه قبل هذا التأريخ قبل ذهابه إلىٰ مصر.

إلىٰ كثرة وثائقه، وغناء مادته الفكرية والتاريخية، ووفرة مصادرة الكلامية والفلسفية، وعدد الإشارات إلىٰ بحوث سابقيه، ودقة الأحكام التي يصدرها علىٰ المتكلمين والصوفية والفلاسفة وأصحاب الفرق وفقهاء المذاهب المختلفة.

هناك ملاحظتان ينبغي ألا تغربا عن بالنا في مبدأ الأمر إذا أردنا الولوج في سرائر التكوين العقلي والنشأة العلمية لابن تيمية؛ فيجب أن نعتبر قبل كل شيء وحدة النظر الدينية عنده في قوتها ودوامها، حيث كانت الأفكار التي عرضها في مطلع فجر تأليفه هي نفس الأفكار التي تناولها شرحًا وتفصيلًا في سائر تواليفه المتأخرة.

ومن جهةٍ أخرىٰ، إن الطريقة القويمة في هذا الصدد هو أن نبدأ من نفس القضايا الفكرية والمشكلات العقلية التي بدأ منها ابن تيمية ذاته؛ لأنها كانت فعلًا قضايا عصره ومشكلات زمنه. فهكذا يجب علينا أن نتساءل أولًا عن موقف ابن تيمية من مذهبه، ثم عن معرفته بعلم الخلاف والفِرَق.

إن نشأة أحمد بن تيمية هي في جوهرها نشأة رجلٍ حنبلي قبل كل شيء. ومعرفته الفائقة بمذهبه كانت مثار الإعجاب والاعتراف من قبل أتباعه وخصومه علىٰ السواء. ويمكن القول بدون شطط: إنَّ جميع مؤلفات الإمام أحمد كانت مألوفةً له تمامًا. وأمَّا إحاطته مثلًا بمسائل الإمام أحمد فهي منقطعة النظير. كان يعتمد في ذلك علىٰ مؤلفات أبي بكر الخلال؛ منها كتاب «الجامع لعلوم الإمام أحمد»

الذي هو بمثابة المدونة الفقهية الأولىٰ للمذهب الحنبلي، ومنها كتاب «السُّنة» الذي كان يعتبره أكمل وأوثق مُصنَّف لدراسة الأصول الدينية، ومنها «كتاب العِلم» الذي كان يراه خير مصدرٍ لمعرفة مذهب أحمد في الأصول الفقهية.

وهناك عالمان كبيران معاصران لأبي بكر الخلال يأتي ذكرهما مرارًا في مؤلفات ابن تيمية، الأول منهما: هو أبو محمد الرازي[١]، وهو من أعظم المحدِّثين في وقته. وكان الشيخ الرازي صاحب تفسيرٍ جليلٍ للقرآن الكريم، وهو في نظرِ ابن كثير أحسنُ مجموعةٍ في فنِّ التفسير بالمأثور[٢]. ونستطيع أن نقرِّر بناءً علىٰ الروايات العديدة التي يكثر ذكرها في كتاب «الرد علىٰ المنطقيين» وفي غيره أن تفسير الرازي هذا كان في متناول الشيخ تقي الدين، وأنه كان علىٰ درايةٍ تامةٍ به.

أمَّا العالم الآخر المعاصر لأبي بكر الخلال الذي عرفه ابن تيمية أيضًا واستفاد منه كثيرًا فهو الشيخ البربهاري صاحب العقيدة الشهيرة؛ كتاب «السُّنة» التي نجد نصها في طبقات الأصحاب للقاضي أبي الحسين. وكان ابن تيمية يوصي بقراءة كتاب السُّنة للبربهاري من بين سائر الكتب المُصنَّفة في العقائد.

---

(١) يعني عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي ت ٣٢٧.

(٢) لكن في نظر ابن تيمية كان أعظم التفاسير هو تفسير أبي جعفر بن جرير الطبري ت٣١٠ ، ينظر الفتاوىٰ ١٣/ ٣٨٥.

وفي عهدِ بني بويه سطعت نجومٌ عديدة من كبار الحنابلة، نجد أسماءهم تتردد في تواليف ابن تيمية.

من بين هؤلاء الشيوخ الكبار يحسن بنا أن نذكر أولًا: ابن بطة العكبري صاحب «الإبانة الكبرىٰ» و«الإبانة الصغرىٰ». كان ابن تيمية قطعًا علىٰ معرفة بالإبانة الصغرىٰ، كما كان أيضًا في غالب الظن علىٰ معرفةٍ بكتاب «الإبانة الكبرىٰ» حيث يروي عنه ويذكره في «منهاج السُّنة». وكذلك كان لابن تيمية معرفةٌ تامَّةٌ بكتبِ ابن حامد في الأصول والفروع، وبكتابه المشهور في اختلاف الفقهاء.

وأما القاضي أبو يَعْلَىٰ، الذي كان التلميذ الأكبر لابن حامد، وأسهم بنصيبٍ وافرٍ في انتشار المذهب الحنبلي أثناء هذا العهد؛ فقدِ اطَّلع ابن تيمية علىٰ جملةٍ واسعة من آثاره واستفاد منها غاية الاستفادة. إن الكتب الأساسية للقاضي أبي يعلىٰ التي يكثر ذكرها في مؤلفات الشيخ تقي الدين هي كتاب «المجرد» في أصول الفقه[1]، وكتاب «الاختلاف الكبير» في الفقه، وكتاب «المعتمد» في أصول الدين.

---

(١) قلت: المجرّد كتاب في الفقه وليس في الأصول، وقد قال عنه ابن تيمية: «فالقاضي صنف المجرد قديمًا بعد أن صنف شرح المذهب وقبل أن يُحكِم التعليق والجامع الكبير». مجموع الفتاوىٰ (٣٠/ ٢٩٩). وينظر الاقتضاء ٢/ ٤٣.

ومما هو جديرٌ بالتنويه في هذا الموطن ذلك الحكم الخاص الذي أبداه ابن تيمية نحو القاضي أبي يعلىٰ، أنه يعتب عليه تساهله تجاه الأشاعرة، كما يأسف لكون تقواه وورعه قد حملاه علىٰ الابتعاد عن الإسهام الفعال في الحياة السياسية.

سيكون من المستحيل حقًّا أن نعدِّد في هذه المحاضرة الوجيزة أسماء سائر الحنابلة البغداديين الذين عرفهم أحمد بن تيمية، وكانوا مصدر غذائه الفكري ونمائه العلمي، ولكن ثمة عدة شيوخ كبار لا يمكن إغفال ذكرهم، الأول منهم: الشيخ أبو الخطاب الكَلوذاني، الذي كانت كتبه تعتبر كأمهات الكتب في المذهب؛ منها كتاب «الهداية» في الفروع، وكتاب «التمهيد» في الأصول، وكتاب «الاختلاف الكبير» في الخلاف.

والثاني منهم: الشيخ أبو الوفاء ابن عقيل، الذي كان أحد كبار الأئمة في المذهب الحنبلي، وفي الوقت نفسه أحد كبار رجال النثر الفني في الأدب العربي. إن عصارة تفكير هذا الإمام العظيم قد انصبت في عقلية ابن تيمية إن أمكن مثل هذا التعبير، وعملت في تلقيحه وتكوينه، بيد أن الشيخ تقي الدين كان يأخذ علىٰ ابن عقيل ميوله نحو الحَلَّاج والمعتزلة، ورضاه عن علم الكلام.

والشيخ الثالث الذي ينبغي التنويه به في هذا الموطن فهو: أبو الفرج ابن الجوزي خطيب بغداد الملتهب ومؤرخ الخلافة الممتاز.

يروي لنا ابن رجبٍ في «ذيله» أن ابن تيمية لما كان في القاهرة أمكنه أن يحصي ألف كتابٍ من تواليف ابن الجوزي وأن يطَّلع عليها، كما تيسَّر له بعد ذلك أن يعرف عددًا آخر من كتبه. ولكن خير تصانيف أبي الفرج في نظر ابن تيمية هي «المناقب»[1] التي خصصها لتأريخ سيرة بعض الشخصيات الدينية والسياسية في عصور الإسلام الأولىٰ. وكان يعتبر ابن تيمية هذه المناقب أفضل بكثير من تراجم «حِلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني، وكان يقارن أيضًا بين ابن الجوزي وأبي بكر البيهقي، فيرىٰ أن أبا بكر هو لا شكَّ أوثقُ معرفةً في مادة الحديث، إلا أن أبا الفرج كانت معارفه أوسع أفقًا وأكثر عددًا.

إن محاولتنا في رسمِ الخطوط العامة للتكوين العقلي عند ابن تيمية ستُوسَمُ حقًّا بالنقص إذا نحن لم نُضِفْ بعضَ كلماتٍ تبيِّن مدىٰ اطلاع شيخنا علىٰ مدرسة الحنابلة في دمشق وحَرّان.

كان ابن تيمية يعرف من مدرسة دمشق جميع مؤلفات موفق الدين بن قدامة، وهناك كتابان لابن قدامة هما في الذروة العليا بالنسبة إلىٰ سائر مصنفاته: «المغني» وهو شرحٌ مُطوَّلٌ لمختصر الخِرَقِي، وكتاب «الروضة»؛ رسالة في أصول الفقه. وقد درس ابن تيمية هذين

(١) الظاهر أنه يقصد كتاب صفة الصفوة، بدليل مقارنته بكتاب حلية الأولياء لأبي نعيم.

الكتابين علىٰ الشيخ شمس الدين عبد الرحمن المقدسي، كما باشر شرح «العمدة» لابن قدامة، ولم يبقَ من هذا الشرح إلا بعضُ أجزائه فقط، وهي محفوظة الآن في دار الكتب الظاهرية بدمشق[١].

أمَّا مدرسة الحنابلة في حران فقد كان ابن تيمية علىٰ علمٍ بها عن طريق الوراثة؛ كان جده مجد الدين أبو البركات قد أبقىٰ مصنفَين مشهورَين: «المحرر» في فروع الفقه، و«المنتقىٰ» في الأحاديث التي بُنِيَ عليها مذهب الإمام أحمد. وكما لاحظ ابن رجب في «الذيل» أنَّ خير ما اكتسبه الحنابلة في نشأتهم العلمية القرنين السابع والثامن للهجرة كانوا مَدينين به إلىٰ آثار موفق الدين بن قدامة ومجد الدين أبي البركات. وقد اطَّلع ابنُ تيمية نفسه أيضًا علىٰ مؤلفات هذين الشيخين، ولكنه لم يكتف بهما وحدهما، بل طمح ببصره وراء ذلك إلىٰ الينابيع الضافية للمذهب ذاته؛ كما أشرنا إلىٰ ذلك فيما مضىٰ.

رافقت دراسة ابن تيمية لمذهبه الخاص دراسته لعلم الخلاف، وهنا أيضًا كان مثار الإعجاب في معرفته الواسعة الدقيقة بالمذاهب الفقهية الإسلامية سواء في مجال الأصول أو مجال الفروع؛ إذ كل

---

(١) ثم وجدت قطعة صالحة منه في منطقة القصيم بخط علي المشيقح، نُسخت من نسخة أبي بكر الجراعي، وقد صدر ما وجد منه في خمسة مجلدات عن دار عالم الفوائد ومؤسسة الراجحي، وفيها كامل قسم العبادات ينقصها كتاب الزكاة وبعض الصلاة.

فقيه في نظره يجب أن يكون عالمًا بالأصول والفروع في آنٍ واحدٍ. وقد يُقال أحيانًا: إنَّ ابن تيمية طالبَ بفتح باب الاجتهاد من جديد، فيبدو لنا أن هذا التعبير غير صحيح كل الصحة؛ لأنَّ باب الاجتهاد في نظرِ شيخ الإسلام لا يمكن أن يكون مغلقًا؛ إذ هو ضرورة لازمة لحيوية الفقه، وفهمه الكامل، والدفاع عنه وتطبيقه. وإنه أيضًا لمن الصعب - كما لاحظ ذلك ابن قيم الجوزية في كتابه «أعلام الموقعين» - تحديد العصر الذي اعتبر فيه باب الاجتهاد مغلقًا، وأصعب من ذلك تعيين السلطة التي لها صفة تخولها مثل هذا الحكم.

ولم يقف أحمد بن تيمية من حيث هو مجتهد مطلق عند حدود معرفته التامة للتفسير وعلوم الحديث روايةً ودراية، بل جال بفكره الثاقب حول جميع المسائل التي أثارها الفقهاء، وكان له اهتمامٌ عميق بمعرفة فتاوىٰ الصحابة والتابعين، وقد قال في خاتمة رسالته عن القياس في الشرع الإسلامي: إنه أمعن النظر في فتاوىٰ السلف الصالح فوجدها تجمع بين صحيح النقل وصريح العقل.

كان ابن تيمية قبل كل شيء مدينًا بهذه المعرفة الشاملة للمذاهب الفقهية إلىٰ آثار ابن حامد، والقاضي أبي يعلىٰ، وأبي الخطاب الكُلوذاني، والشريف أبي جعفر وغيرهم من الفقهاء الكبار كالوزير الحنبلي ابن هُبَيْرة في كتاب «الإفصاح» أو ابن حزم الظاهري في كتاب «المُحَلَّىٰ».

وهناك ما هو أهم من هذا أيضًا: أنَّ ابن تيمية كان علىٰ اطلاعٍ شخصيٍّ مباشرٍ لأعظم الآثار الفقهية؛ فيعتمد مثلًا علىٰ كتبِ أصحاب أبي حنيفة الأوَّلِين، أو علىٰ «المدونة الكبرىٰ» في الفقه المالكي. ويخبرنا بأنه قرأ بإمعانٍ كتاب «الأُمِّ» و«الرسالة» الشهيرة للإمام الشافعي. وقد اهتم أيضًا بدراسة الظروف التي نشأ فيها أئمة المذاهب الفقهية. ومما يكون جديرًا بالذِّكر في هذا الشأن ما يقول في «منهاج السُّنة» عن نشأة الفقه الإسلامي ردًّا علىٰ نظرية الشيخ المُطهَّر الحلي.

وللشيخ تقي الدين رسالة علىٰ الرغم من إيجازها النسبي تستحق التنويه بها، تلك هي «الرسالة المَدَنِيَّة»[1] التي طالما تمنينا ترجمتها إلىٰ اللغة الفرنسية.

يعالج ابن تيمية في هذه الرسالة دراسة مذهبَي الحجاز والعراق علىٰ نحوٍ جديدٍ، وهو استنباط مجموعة القواعد العامة المُوَزَّعَة بحسب أبواب الفقه. والنتيجة التي يَخْلُصُ إليها شيخنا من هذه النظرة الكلية المقارنة هي تفضيل مذهب الحجاز علىٰ مذهب العراق. وقد أبقىٰ لنا في هذه الرسالة خلاصة ممتازة للأحكام التي يقول بها هو نفسه في الحلال والحرام والنكاح والعقود والعبادات والجنايات والحدود. فمن أجل ذلك كانت «الرسالة المدنية» بمثابة مقدمة

(١) تنظر في مجموع الفتاوىٰ: ٢٠/ ٢٩٤ - ٣٩٦، وهي غير الرسالة المدنية في الصفات ٦/ ٣٥١.

ممتازة لدراسة أفكار ابن تيميةِ الفقهية، حيث اهتم هو نفسه بعرضها ووصفها في نطاقها التاريخي الخالص.

ونحن لا نستطيع أن ندرك تمامًا نشأة ابن تيمية العلمية واتجاهه الفكري - فيما عدا اطلاعه الشامل علىٰ المذهب الحنبلي والخلاف - إلا إذا أدخلنا في الحساب معرفته الفائقة بالفِرَق. يخبرنا هو نفسه بأنه تأمَّل في أهمِّ المجاميع التي خصَّصها علماء الكلام لوصف هذه الفِرَق. كانت «مقالات الإسلاميين» لأبي الحسن الأشعري تتردد كثيرًا في تواليفه، وخاصةً في «منهاج السُّنة»؛ حيث يقول: إنَّ هذه المجموعة أفيدُ كتابٍ لدراسة مسألة الصفات. وكثيرًا ما يذكر الشهرستاني كصاحب «الملل والنِّحَل» في «منهاج السُّنة» وغيرها من مؤلفاته. وحكمه فيه كان في منتهىٰ الصواب والدقة عندما يرىٰ أن الشهرستاني كانت له ميولٌ واضحة نحو التشيُّع والكلام.

ولم يكتفِ ابن تيمية بمعرفة ثانوية عن الفِرَق، بل كان عنده غالبًا علمٌ مباشرٌ بآراء المبتدعة الذين يهاجمهم؛ كما يدل علىٰ ذلك دراسته لكتب النصيرية قبل الرد عليهم، أو اهتمامه بمُرْشِدَة المهديِّ ابن تُوْمَرْت التي انتقدها في كتابٍ خاصٍّ.

حقًّا إنه لا شيء أكثر إفادة للنفس واستنارة للفكر من تتبع آراء ابن تيمية في أعظم فرق الإسلام، وكذلك مثلًا كانت موسوعة «رسائل إخوان الصفا» مألوفة لديه، وحكمه فيها حُكمُ مؤرِّخٍ ومتكلم في آنٍ واحدٍ؛ فيتساءل عن الظروف التاريخية التي حملت الإخوان علىٰ

تأليف هذه الرسائل في أواخر القرن الرابع للهجرة، وعن أغراضهم القصوىٰ فيها؛ فيقول: إنهم أرادوا الجمع بين الشريعة والفلسفة اليونانية والتشيع لتأسيس دولة العبيدية الباطنية علىٰ هذه الدعوة.

كان ابن تيمية بلا ريب قاسيًا جدًّا علىٰ جانب الإلهيات في رسائل الإخوان، ولكنه علىٰ الرغم من هذا الحكم القاسي يصرِّح بأنَّ رسائل الإخوان تَجمعُ أشتاتًا من المعارف الرياضية والطبيعية والمنطقية والسياسية لا يمكن بحالٍ تجاهل قيمتها الثمينة.

وهكذا نحن بالتالي لا ندهش إذا أدركنا مدىٰ اهتمام ابن تيمية بدراسة كبار فلاسفة الإسلام والرد عليهم. إنه يتكلم عن معرفة تامة بالفارابي في مواطن عديدة تنتقد فيها نظريات المُعلِّم الثاني في «المدينة الفاضلة» أو «السياسة المدنية» كما كان يديم النظر في مؤلفات الشيخ الرئيس وخاصة في كتابه «الإشارات والتنبيهات». وهو قد قرأ القصة الفلسفية لابن طُفَيل، وانتفع بمؤلفات ابن رشد، يذكر مرارًا «مناهج الأدلة» و«فصل المقال» و«تهافت التهافت». وقد تبع ابنُ تيمية أثر الغزالي والشهرستاني في نقده للفلاسفة، مخصصًا لهذا الغرض عدة مصنفات عالج فيها مشكلة الفلسفة بصورة عامة، أو ردَّ فيها آراء بعض الفلاسفة بصورة خاصة؛ فأبان بوضوحٍ تام في «منهاج السنة» عن هذا الطابع المخضرم والأصيل لكبار الفلاسفة عندما يقول: إن معتقد هؤلاء الفلاسفة هو برزخ بين عقائد المسلمين وعقائد الفلاسفة اليونانيين.

لطالما اعْتُبِرَ أحمد بن تيمية خصمًا لدودًا للتصوف، ولكنه ثمة أمرٌ يتطلب الإيضاح والتدقيق ضرورة، لكي ندرك تمامًا نشأة الشيخ العلمية ومدىٰ نشاطه. إن التصوف الذي هاجمه هو بديًا تصوف الحلولية والاتحادية، وهو في ذلك يتبع طريق أبي منصور البغدادي في «الفَرْق بين الفِرَق» أو أبي الفرج ابن الجوزي في «تلبيس إبليس». وكذلك يعتزل ابن تيمية التصوف عندما يراه يتقيد بعبادات تكون في نظره مخالفة للشريعة، أو بآداب لا تتفق فيما يرىٰ مع مقتضيات الحياة الفردية والاجتماعية. ولكنه لم ينكر جملة التصوف، ولم يحث المؤمنين علىٰ الابتعاد عنه، بل كان بالعكس يقدر صوفية الحقائق حق قدرهم؛ فكثيرًا ما يدافع عن كبار الصوفية الذين جمعوا في كتبهم وسيرتهم بين الشريعة والحقيقة، وكثيرًا ما يحث أصحابه علىٰ الاقتداء بهم؛ فإنه أبدىٰ مرارًا ميله نحو الجُنَيد، وأبي طالب المكي، والشيخ عبد القادر الجيلي، وأبي حفص السُّهْرَوَرْدِي، وغيرهم من رجال الزهد والتصوف.

وأمَّا علمُ الكلام فإنَّ أحمد بن تيمية كان منه في موقف الخصم العنيد، وهو هنا أيضًا كان علىٰ وفاقٍ تامٍّ مع مذهبه. لقد اهتم ابن تيمية خاصة بنقد مذهب الأشاعرة الذي كان لا يزال حيًّا في عصره في مصر والشام. لقد أمعن النظر في أهم كتب كبار الأشاعرة؛ كأبي الحسن الأشعري، وأبي بكر الباقلاني، وأبي المعالي الجويني، وأبي حامد الغزالي، وفخر الدين الرازي. وإن كثيرًا من أحكامه في هؤلاء الأئمة

تكشف عن ثاقب فكره، وإحساسه الثابت بالتطور العلمي. فإنه مثلًا يخبرنا عن نفسه بأنه تأمل في مؤلفات الأشعري واستفاد منها، إلا أنه يعتب عليه تأثره ببعض تعاليم الجهمية والقدرية والمعتزلة. وكذلك نجد ابن تيمية يشير مرارًا في تواليفه إلىٰ الإمام الغزالي ويكثر من انتقاده؛ فيقول مثلًا: إن الغزالي كان في الفلسفة تلميذًا لابن سينا، وإخوان الصَّفاء، وأبي حَيَّان التوحيدي، كما كان في التصوف مدينًا إلىٰ المُحَاسِبي وأبي طالب المكي.

فعتب عليه احتفاظه بكثير من مواد الفلسفة والتصوف المفرط، حتىٰ أطلق عليه تسمية المتصوف المتفلسف، الأمر الذي لا يخلو من قسوة حقًّا. ونفس هذه القسوة في الحكم نلاحظها أيضًا بخصوص رأي ابن تيمية في الإمام فخر الدين الرازي، الذي رد عليه في مواطن عديدة من تواليفه، ولكنه مع ذلك يشهد في مواطن أخرىٰ بعلو قدره في المعارف الكلامية، وطول باعه في النقاش والجدل. ولكنه مع ذلك كله، ومهما عظم انتقاده للكلام والمتكلمين كان هو نفسه في حقيقة الأمر متكلمًا؛ بمعنىٰ أنه استعمل مصطلحات علم الكلام، وتقسيمه للمسائل، وطرقه للمناظرة والجدل.

فهكذا تتجلىٰ أمامنا النشأة العلمية لابن تيمية، وفي الوقت نفسه أهم مقاصد مذاهبه الخاصة. إنه يقول لنا في رسالته عن القياس في الشرع الإسلامي ما خلاصته: إن المتكلمين بنوا مذهبهم علىٰ العقل، والمحدثين مذهبهم علىٰ الحديث، والصوفية مذهبهم علىٰ الإرادة؛

فالحديث والعقل والإرادة هي العناصر الثلاث التي قصد ابن تيمية بكل دقة إدماجها في بناءِ هيكلِ مذهبه الخاص.

وهو لم يزل مع ذلك متمسكًا بتعاليم الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه الكبار؛ فيكون مذهبه مذهبَ جمعٍ وتوفيق؛ أي مذهبًا وسطًا يعطي كل فرقة حقها. وهذا ما يقول هو نفسه في «الواسطية» وفي «منهاج السنة» عندما يكتب: «إن أهل السنة والجماعة هم الوسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم. فهم وسطٌ في باب صفات الله سبحانه وتعالىٰ بين أهل التعطيل الجهمية وبين أهل التمثيل المُشَبِّهَة، وهم وسطٌ في باب أفعال الله تعالىٰ بين القدرية والجبرية، وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم، وفي باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة، وبين المرجئة والجهمية، وفي باب أصحاب رسول الله ﷺ بين الروافض وبين الخوارج».

وهكذا ظهرت معالم ابن تيمية الإصلاحية وسطًا بين علوم السلف والخلف، وبين المحافظة علىٰ القديم والمشي نحو التجدد والتقدم.

والسلام.

ابن تيمية، محيي السُنّة

من كتاب قمم من الفكر العربي والإسلامي

لنقولا زيادة

ابن تيمية، محيي السُّنّة[1]

إنَّ الفترة الواقعة بين منتصف القرن السابع ومنتصف القرن الثامن للهجرة (أي: منتصف القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر للميلاد) فترةٌ شهدت تبدلًا سياسيًّا واجتماعيًّا كبيرًا في الرقعة المتوسطة من ديار الإسلام، أي: في العراق والشام ومصر وما إليها.

ففي مطلعها قامت دولة المماليك في مصر التي ورثت الدول الأيوبية فيها وفي ديار الشام. وفي الوقت ذاته علىٰ وجه التقريب أغار المغولُ علىٰ العراق واحتلوا بغدادَ وقضوا علىٰ الخلافة العباسية. وفي هذه الفترة كان الأتراكُ العثمانيون ينشئون دولتهم الفتية في آسية الصغرىٰ لكن اتجاههم كان نحو أوروبة.

وكان الصليبيون لا يزالون يحتلون القسم الأكبر من السواحل الشامية. واستمرَّ المغول -بعد استيلائهم علىٰ بغداد- في الزحف غربًا نحو الشام، فخربُّوا ودمَّروا، ولكنّ المماليك وقفوا في وجههم مع ما كان لهم من الجيوش المصرية والشامية.

---

(١) الترجمة من كتاب قمم من الفكر العربي والإسلامي ص١٦٠ -١٦٦ .

كما أنَّ المماليك بقيادة الملك الظاهر بيبرس والناصر قلاوون والأشرف خليل بن قلاوون استطاعوا أنْ يُخْرجوا الصليبيين من السواحل الشامية، فانتقل هؤلاء إلىٰ قبرص، إلَّا أنَّ خطرهم علىٰ بلاد الشام ظلَّ هاجسًا في المنطقة.

وكانت عناصر تركية مختلفة قد انساحت في المنطقة منذ أيام العباسيين والسلجوقيين، وكانت قبائل تركمانية قد استقرت في دار الشام، وجاء المماليك الآن يفيدون من هذه العناصر فيقيمون جاليات غزية وتركمانية علىٰ الشواطئ السورية واللبنانية بقصد الدفاع عن تلك المناطق فيما لو هاجمها عدوٌّ من جهة قبرص.

وإذا تذكرنا أنَّ المماليك أنفسهم كانوا -إلىٰ درجة كبيرة- أتراكًا، وأنهم استكثروا من الجنود الأتراك والشراكسة أدركنا مدىٰ دخول هذه العناصر في تكوين السكان.

ويُضاف إلىٰ هذا أنَّ جماعات من البدو انتقلت في تلك الفترة من مشارف الحجاز وغيرها من أنحاء الجزيرة واستقرت في فلسطين ومناطق الشام الأخرىٰ.

والدولة المملوكية التي كانت تتحكم في شؤون مصر والشام في هذه الفترة إلىٰ مدة قرن ونصف القرن بعد ذلك، كانت دولة عسكرية سلاطينها وحكامها وضباطها والعمدة من حلقات الجيوش فيها أتراك أو شراكسة، والإدارة عسكرية بطبيعتها وتصرفها، وإنْ كانت قد تركت الكثير من الوظائف الديوانية وجميع الوظائف الدينية

لأهل البلاد، لكن يد الحاكم كانت قويةً.

في القرن الخامس كان نظام الملك السلجوقي قد أنشأ المدرسة النظامية في بغداد التي أصبحت نموذجًا للمدارس الإسلامية في شرق العالم الإسلامي وغربه.

وهذه المدرسةُ كانت رسميةً بمعنىٰ أنَّ الدولة كانت تُشْرِف عليها، وكانت دينيةً في برامجها بمعنىٰ أنها كانت تُدرِّس القرآن الكريم والحديث الشريف والتفسير والفقه واللغة وما إلىٰ ذلك، ولكنها كانت قد انتزعت من برامجها الكثير مما كانت المدارس تُعنىٰ به قبل القرن الخامس للهجرة (أي: القرن الحادي عشر للميلاد).

وكانت الغاية من هذه المدارس أنْ تُهيِّئ للدولة الموظفين الذين تحتاجهم كما كان ينتظر منها أنْ تُؤيِّد مواقفَ الدولة الرسمية.

ومع أنَّ الدولة الفاطمية كانت قد قُضي عليها قبل نحو قرن، فلمْ يكن معنىٰ ذلك أنَّ الإسماعيلية والفِرق الشيعية قد انتهىٰ أمرُها. وكانت الدولة المملوكية ترىٰ في هذه كلها خطرًا عليها؛ إذ أنها كانت سُنيةً.

ومن هنا كان من واجب المدارس المختلفة أنْ تؤيِّد السُّنة وتوضحها.

ومما فعله المماليكُ في سبيل تأييد وجودهم وتوكيده هو أنهم أحيوا الخلافة العباسية في القاهرة؛ لتكونَ لهم درعًا روحيًّا دينيًّا.

ومما يلفتُ النظر أنَّ هذه الفترة والعقود التي سبقتها شاهدت إحياءً للمذهب الحنبلي الذي أخذَ يتركَّزُ حول دمشق.

وقد هاجرَ كثيرٌ من الحنابلة من حرَّان في جزيرة ابن عمر الشامية ومن فلسطين مثل بني قدامة، وحتىٰ من بغداد إلىٰ دمشق.

في هذه الفترة عاشَ ابنُ تيمية، وهو سليلُ بيت علمٍ ماجدٍ، فقد كان جدُّه وأبوه فقيهين مرموقين ومدرِّسَين قديرَين.

وكانت الأسرةُ مستقرة بحران، وفيها وُلد أحمدُ بنُ عبد الحليم ابن تيمية سنة ٦٦١ للهجرة (أي: سنة ١٢٦٣ للميلاد)، وذلك بعد سقوط بغداد علىٰ أيدي هولاكو بخمس سنين.

ولمَّا رأىٰ أبوه أنَّ المغول أخذوا يُغِيرون علىٰ تلك المنطقة انتقلَ بأسرته إلىٰ دمشق، وكان عمرُ أحمد يومها ستّ سنوات.

ولولا أنْ مَنَّ اللهُ علىٰ هذه الأسرةِ بالسلامة لكان جيشُ المغول أدركها في الطريق.

في دمشق نشأَ ابنُ تيمية وترعرع، وكانت مدينةُ دمشق من مراكز العلم الكبرىٰ، فقد كان فيها ما لا يقل عن ثلاثين مدرسة يطلبُ فيها الناسُ العلومَ الشرعية واللغوية.

وقد تعلم ابنُ تيمية الخط والحساب وحفِظَ القرآن وانتقل إلىٰ الفقه والعربية وبرعَ في النحو، ثُمَّ أقبلَ علىٰ التفسير إقبالًا كليًّا، وأحكمَ أصول الفقه، وهو لمْ يبلغ العشرين من عمره، بل إنه أفتىٰ حتىٰ وهو دون هذه السن.

وتُوفي والده وسنه واحدٌ وعشرون عامًا، وكان قد عُرف واشتهر وقضىٰ في دمشق حياته كلها إلَّا سبع سنوات قضاها في مصر.

في هذه السنوات السبع سُجن مرتين؛ الأولىٰ بسببِ تحامُل العلماء المصريين عليه، والثانية بسببِ تهجمه علىٰ الصوفية.

وفي دمشق سُجن ابن تيمية في القلعة مرتين، الأولىٰ كانت قصيرة الأمد، والثانية دامت سنتين وبعض السَّنة. وهذه الأخيرةُ سبقت وفاته.

وفي سجنه كتبَ ابنُ تيمية قسمًا كبيرًا من رسائله ومؤلفاته. ولكن في الشهور الأخيرة من سجنه الأخير أخذتِ السلطاتُ منه كتبه ومنعت عنه الورق والحبر؛ لأنها أرادتْ أنْ تحولَ دونه ودون توضيح آرائه.

وقد اغتمَّ لذلك ومرضَ وانتقلَ إلىٰ رحمة ربه سنة ٧٢٨ للهجرة (أي: سنة ١٣٢٨ للميلاد).

كان ابنُ تيمية فقيهًا عالمًا، وكان يُصدِر فتاواه في كلِّ شأنٍ سُئل عنه، لكن المهم في الرجل ليس علمه وفقهه فحسب، بل جرأته في الحق.

وقد نصَبَ نفسه خصمًا لكل ما من شأنه أنْ يمسَّ جوهر الإسلام، وكلَّ مَن يقول بذلك.

فالفلاسفةُ والباطنية والصوفية والمشبِّهةُ والمجسِّمةُ كانوا في رأيه مؤذين للأمة الإسلامية، فخاضَ ضدهم حربًا عَوانًا؛ بقلمه، ووعظه، وتفسيره، ومجالسه العلمية.

لكن ابن تيمية لمْ يكن ناقدًا سلبيًّا، بل كان في أعماله بنّاءً إيجابيًّا. والقاعدةُ التي انطلقَ منها: أنَّ الأمة وجدت لكي تتم إرادة الله، وإرادة الله أظهرها وحيًا في القرآن الكريم وحديثًا علىٰ لسانِ النبي. وإذن فالنصُّ والسُّنة هما ما يجب أنْ يُتبع بالنسبة إلىٰ جماعة المؤمنين.

وتشدَّدَ ابنُ تيمية في قضية التوحيد والوحدانية تفسيرًا وإرشادًا؛ ذلك بأن الفِرق التي كانت موجودةً في الشرق العربي وقتها كانت فيها دعوةٌ إلىٰ الحلول أو الشرك أو الوساطة. فكانت دعوته إلىٰ الوحدانية قويةً حارةً.

وكان ابنُ تيمية يدعو إلىٰ نشرِ العدل والوقوف ضد الظلم، ولم يُخْفِ هذه الدعوة بل جهرَ بها، وهذا ما عرّضه للنقمة أمام أصحاب السلطان والنفوذ، لكن ابن تيمية لمْ يكن يهتم بهم قطُّ.

وإذا كانت كتبُ ابن تيمية الفقهية والكتب المتعلقة بالعقيدة، وخاصةً الفتاوىٰ كبيرة، فلابن تيمية رسائلُ صغيرة هي في القمة من علمِ السياسة العملي مع الحفاظ علىٰ الأسس الإسلامية.

ونذكر على سبيل المثال: رسالته في السياسة الشرعية، ورسالته في الحِسبة؛ فابنُ تيمية كان يرىٰ أنه لابُدَّ للمجمع من رئيسٍ يتولىٰ أمره، وفي ذلك يقول: (ويجبُ أنْ يُعرف أنَّ ولاية أمرِ الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيامَ للدين إلَّا بها. فإنَّ بني آدم لا تتمُّ مصلحتهم إلَّا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلىٰ بعضٍ، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأسٍ... ولأن الله أوجبَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعدل، وإقامة الحج، والجُمع، والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود، وكل هذا وما إليه لا يتمُّ إلَّا بالقوة والإمارة... وهكذا تكونُ إقامة الحاكم الأعلىٰ للأمة أمرًا ضروريًّا لخير المسلمين في الدنيا والأخرىٰ، ويكون العمل علىٰ توليته قربةً يُتقرَّب بها إلىٰ الله تعالىٰ. ويجب عندئذٍ حياطته بالنصح إذا لزمَ الأمرُ.

فإنَّ الرسولَ ﷺ قال: «الدِّين النصيحة، الدِّين النصيحة»، قالوا: لمَن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، وللأئمة المسلمين وعامتهم»). اهـ

ويضيف ابنُ تيمية و(يجب علىٰ ولي الأمر أنْ يولي علىٰ كل عملٍ من أعمال المسلمين أصلحَ مَن يجده لذلك العمل... وليس له أنْ يقدِّم رجلًا لأنه طلبَ الولاية... وقد دلَّت سُنة رسول الله ﷺ علىٰ أنَّ الولاية أمانة يجب أداؤها... والولاية لها ركنان: القوة والأمانة... والقوةُ في كل ولاية بحسبها.

فالقوةُ في إمارة الحرب ترجع إلىٰ شجاعة القلب وإلىٰ الخبرة بالحروب والمخادعة فيها، فإنَّ الحربَ خدعةٌ، وإلىٰ القدرة علىٰ أنواع القتال... والقوةُ في الحكم بين الناس ترجع إلىٰ العلم بالعدل الذي دلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة، وإلىٰ القدرة علىٰ تنفيذ الأحكام... فالواجبُ في كل ولاية الأصح بحسبها.

فإذا تعيَّن رجلان، أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة، قُدِّم أنفعهما لتلك الولاية، فيُقدم في ولاية الحرب القوي الشجاع وإنْ كان فيه فجورٌ فيها علىٰ الضعيف العاجز وإنْ كان أمينًا. كما سُئل الإمام أحمد بن حنبل عن الرجلين يكونان أميرين، أحدهما قوي فاجر والآخر صالح عفيف، مع أيهما يغزىٰ؟ فقال: أمَّا الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره علىٰ نفسه، وأمَّا الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه علىٰ المسلمين، فيُغزىٰ مع القوي الفاجر). اهـ

ابنُ تيمية كان سلفيًّا لكنه كان سلفيًّا مُصلحًا قويًّا في دعوته، شديدًا في الحاجة إلىٰ الحق والعدل، متشددًا في أنْ يكونَ الإيمانُ صحيحًا صريحًا خاليًا من الشوائب.

لقد كان إمامَ السلفيين.

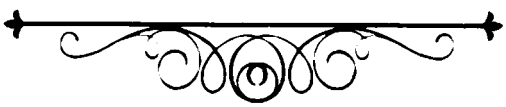

ابـن تيميـــة

من دائرة المعارف الإسلامية

ابـن تيميـة

من دائـرة المعارف الإسلاميـة[1]

❁ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام عبد الله بن محمد ابن تيمية الحَرّاني: متكلم وفقيه عربي، ولد في يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول ٦٦١ (١٢ يناير ١٢٦٣) في حَرَان بالقرب من دمشق. وقد فرّ أبوه من جور التتار، ولجأ بأسرته إلىٰ دمشق في منتصف عام ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م). وعكف أحمد الحدث في قصبة بلاد الشام علىٰ دراسة العلوم الإسلامية، وحضر علىٰ والده، كما حضر علىٰ زين الدين أحمد ابن عبد الدايم المقدسي، ومجد[2] الدين بن عساكر زينب بنت مكي وغيرهم.

وأتم دراسته ولما يبلغ العشرين من عمره، ولما توفي والده عام ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) خلفه في تدريس الفقه الحنبلي، وكان يفسر القرآن علىٰ كرسي من حفظه يوم الجمعة من كل أسبوع، وبرع في علوم القرآن والحديث والفقه والكلام وغير ذلك. ولقد دافع عن سنن

---

(١) موجز دائرة المعارف الإسلامية: (١/ ١٥٠-١٤٠)، تحرير: م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان، الناشر: مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

(٢) المطبوع: نجم، خطأ.

السلف الصالح من المسلمين بأدلة لم يسبق إليها، مع أنها مستقاة من القرآن والحديث، ولكن حريته في الجدل والمناظرة جلبت عليه عداوة الكثيرين من علماء المذاهب الثلاثة الأخرىٰ؛ وحج إلىٰ مكة عام ٦٩١ هـ (١٢٩٢) ولما كان في القاهرة في ربيع الأول عام ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) أو ٦٩٨ هـ أفتىٰ في مسألة جاءته من حماة عن صفات الله بما ألَّب عليه علماء الشافعية وأغضب الرأي العام، فكان جزاؤه الحرمان من منصب التدريس، ومع ذلك فقد عهد إليه في العام نفسه الحض علىٰ جهاد التتار، ولهذا السبب شخص في العام التالي إلىٰ القاهرة، وشهد بصفته هذه وقعة شَقْحَب التي انتصر فيها المسلمون علىٰ التتار بالقرب من دمشق، وقاتل ابن تيمية عام ٧٠٤ هـ (١٣٠٥ م) الكَسْرَوانيين في بلاد الشام بما فيهم الإسماعيلية والنصيرية والحاكمية الذين كانوا يعتقدون بعصمة علي بن أبي طالب ويرمون الصحابة بالكفر، والذين كانوا لا يقيمون الصلاة ولا يصومون، والذين كانوا يأكلون لحم الخنزير إلخ (مرعي: كواكب، ص ١٥٥) ثم ذهب عام ٧٠٥ هـ (١٣٠٦ - ١٣٠٧ م) إلىٰ القاهرة صحبة قاضي الشافعية، وشهد فيها خمس مرات مجالس القضاة والأعيان بقاعة الحضرة السلطانية - وهناك اتهمه القاضي بالقول بالتجسيم، فحكم عليه بأن يلقىٰ هو وأخواه في الجب بقلعة الجبل، وبقي فيه سنة ونصف سنة؛ وفي شوال عام ٨٠٧ هـ (١٣٠٨) نوقش في مسألة كتبها في الرد علىٰ مذهب "الاتحادية" إلا أن الحجج التي جاء بها لم تلبث

أن جردت خصومه من أسلحتهم، وصدر الأمر بترحيله على البريد إلى دمشق ثم حمل على العودة إلى القاهرة بعد مرحلة، وسجن بحبس القضاة لأسباب سياسية سنة ونصف سنة علّم أثناءها أهل الحبس أمور الدين. وأخلى سبيله أياما قلائل ثم اعتقل في برج بالإسكندرية ثمانية أشهر، ثم عاد إلى القاهرة حيث حصل على وظيفة مدرس في مدرسة أسسها السلطان الناصر، مع أنه امتنع عن إفتاء هذا السلطان بما يجيز له الانتقام من أعدائه..

وفي ذي القعدة سنة ٧١٢ هـ (فبراير ١٣١٣ م) خُوّل صحبة الجيش المقاصد إلى بلاد الشام، وبعد أن توجه في طريقه إلى بيت المقدس دخل دمشق ثانية بعد غيبته عنها سبع سنين وسبع جُمع واستأنف حينئذ التدريس إلا أنه منع في جمادى الآخرة ٨١٧ (أغسطس ١٣١٨) بكتاب السلطان من أن يفتي في مسألة الحلف بالطلاق (أن يحلف شخص بالطلاق من زوجته وأن يعلق ذلك بحدوث شيء أو عدم حدوثه) وهي مسألة أباح لنفسه فيها حلولا عدة لا يقبلها فقهاء المذاهب الثلاثة الأخرى (ابن الوردي: تأريخ، جـ ٢ ،ص ٢٦٧) الذين يقولون بأن الذي يوقع هذا الحلف معرض للعقاب مع إلزامه بالوفاء بعقده.

ولم يخضع ابن تيمية لهذا الأمر فحكم عليه بالسجن في قلعة دمشق، وذلك في رجب عام ٧٢٠ (أغسطس ١٣٢٠) وأفرج عنه بعد خمسة أشهر وثمانية عشر يوما بأمر السلطان، ولكنه عاد إلى سابق

عهده، حتىٰ ظفر له أعداؤه بفتواه في مسألة شد الرحال إلىٰ قبور الأنبياء والصالحين التي أصدرها عام ٧١٠ هـ (١٣١٠ م). وصدر في شعبان عام ٧٢٦ (يولية ١٣٢٦) مرسوم السلطان باعتقاله في قلعة دمشق، فأخليت له قاعة كان يخدمه فيها أخوه، وفيها أقبل علىٰ تفسير القرآن وكتابة الرسائل للرد علىٰ المخالفين، وصنف مجلدات عديدة في المسألة التي حبس بسببها ولما اتصل بأعدائه خبر هذه المصنفات جرّد من كتبه وأوراقه ومداده، وكان هذا الحادث ضربة حاطمة نزلت به. ومع أنه كان يطلب السلوىٰ في الصلاة وتلاوة القرآن إلا أنه مرض عشرين يوما، وتوفي ليلة الاثنين عشرين ذي القعدة سنة ٧٢٨ (٢٦ - ٢٧ سبتمبر ١٣٢٨).

وكان أهل دمشق يجلونه ويعظّمون من قدره فاحتفلوا بجنازته احتفالا رائعًا، وقدر عدد من حضر دفنه في مقابر الصوفية بمائتي ألف رجل وخمسة عشر ألف امرأة. ولقد كتب ابن الوردي مرثية له.

وكان ابن تيمية من الحنابلة إلا أنه لم يتبع تعاليم هذا المذهب من غير تبصر أو روية، بل كان يعدّ نفسه "مجتهدًا" في المذهب. ويعطينا مرعي كاتب سيرته (الكواكب) عدة مسائل لم يأخذ فيها ابن تيمية "بالتقليد" بل ولا "بالإجماع".

وهو يصرح بأنه يتبع القرآن والحديث بظاهر لفظهما في جل مؤلفاته، ولكنه كان في الوقت نفسه لا يرىٰ من الخطأ أن يستعين بالقياس في مناظراته، وعلىٰ الأخص في مجموعة الرسائل الكبرىٰ

(جـ١، ص ٢٠٧) وقد خصص رسالة قائمة بذاتها لهذا الأسلوب من التدليل (كتابه المذكور جـ٢، ص ٢١٧).

وكان ابن تيمية عدوًّا لدودًا للبدع، فقد هاجم التضرع للأولياء وزيارة القبور، ألم يقل الرسول: "لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصىٰ، ومسجدي هذا"؟ (الكتاب المذكور، جـ٢، ص ٩٣). وحتىٰ الرحلة التي يقصد منها زيارة قبر النبي فقط فهي معصية (ابن حجر الهيتمي: الفتاوىٰ، ص ٨٧). ومن جهة أخرىٰ فإنه لم يحرم زيارة قبر المسلم، متبعًا في ذلك رأىٰ الشعبي، وإبراهيم النخعي، إلا إذا كانت هذه الزيارة تقام في يوم معين وتحتاج لرحلة خاصة. وبهذا التحديد كان يعتبر تلك الزيارة واجبًا تقليديًّا (صفي الدين الحنفي: القول الجلي، ص ١١٩ وما بعدها).

وكان ابن تيمية مسرفًا في القول بالتجسيد[1]، ومن ثم كان يفسر كل الآيات والأحاديث التي تشير إلىٰ الله بظاهر اللفظ، وقد تشبع بهذه العقيدة إلىٰ درجة أن ابن بطوطة يروىٰ عنه أنه قال من منبر جامع دمشق: "إن الله ينزل إلىٰ سماء الدنيا كنزولي هذا" ثم نزل

(١) هذا قول باطل علىٰ الشيخ، وهو دعوىٰ نفاة الصفات من المعطّلة، فإن إثبات الصفات عندهم يستلزم التجسيم. وكتب ابن تيمية طافحة بالرد علىٰ المجسّمة، وإثبات الصفات التي أثبتها الله لنفسه وأثبتها رسوله كما يليق به هو من الإيمان بها، ولا يلزم منه تشبيه ولا تجسيم كما يقول نفاة الصفات.

درجة من درج المنبر[١]. (انظر على الأخص، مجموعة الرسائل الكبرى جـ١، ص ٣٨٧ وما بعدها).

وقد هاجم ابن تيمية بقلمه ولسانه كل الفرق الإسلامية كالخوارج والمرجئة والرافضة والقدرية والمعتزلة والجهمية والكرامية والأشعرية وغيرها (رسالة الفرقان ومجموعة الرسائل الكبرى جـ١، ص ٢) وقال: إن عقائد الأشعري ما هي إلا مزيج من آراء الجهمية والنجارية والضرارية وغيرها، وكان يعارض بنوع خاص تفسير القدر، وأسماء الله الحسنى والأحكام، وانفاذ الوعيد إلى غير ذلك (الكتاب المذكور، جـ١، ص ٧٧، ص ٤٤٥ وما بعدها).

وكان يخالف أئمة الفقهاء في مسائل كثيرة، مثال ذلك[٢]:

١) كان يرفض العمل بالتحليل الذي تستطيع به امرأة طلقت طلاقا بائنًا أن تتزوج مرة أخرى من زوجها بعد أن يعقد لها على رجل آخر "محلل" على أن يطلقها هذا الرجل بعد ذلك مباشرة.

---

(١) رد على هذه الفرية جماعة من العلماء في مقالات وبحوث مستقلة وانظر ما علقناه على الجامع لسيرة ابن تيمية ص٤٦١.

(٢) هذه الاختيارات التي ذكرها إما إنها خطأ في نفسها فليست هي مما خالف فيها الشيخُ أحدا وليس فيها إجماع ولا غيره كمسألة التحليل، أو خطأ على الشيخ لم يقل بها أصلا كالرابعة، أو خطأ من الناقل لم يفهم وجهها كالثانية والثالثة.

٢) هجر المرأة أثناء الطمث باطل.

٣) المكوس التي لم يرد بها نص في القرآن مقبولة والذي يدفعها يعفىٰ من الزكاة.

٤) ليس من الزندقة أو المروق أن ترىٰ رأيًا مخالفا للإجماع.

وطعن كذلك علىٰ الرجال الذين يعدّون حجة في الإسلام، وهاجم الغزالي بشدة. كما هاجم محيي الدين ابن عربي وعمر بن الفارض والصوفية بوجه عام. أما فيما يختص بالأول فقد طعن في آرائه الفلسفية التي ضمنها كتابيه: "المنقذ من الضلال"، و"إحياء علوم الدين" الذي يحوي عددًا كبيرًا من الأحاديث غير الموثوق بها، فقال: "المتكلمون والصوفية في واد واحد"، وحارب في حماسة بالغة الفلسفة اليونانية ومنتحليها من المسلمين، وعلىٰ الأخص ابن سينا وابن سبعين: ألا تؤدي الفلسفة إلىٰ الكفر؟ ألم تكن في الأغلب مصدر الفرق المختلفة التي نشأت في صدر الإسلام؟

ولما كان الإسلام قد جاء ليحل محل اليهودية والمسيحية، فمن الطبيعي أن يدعو ابن تيمية إلىٰ مهاجمتهما، فبعد أن اتهم اليهود والنصارىٰ بتغيير معنىٰ بعض الكلمات في كتبهم المقدسة[1] (انظر

---

(١) تحريف التوراة والإنجيل نص عليها القرآن العظيم وليست تهمة من ابن تيمية ولا غيره، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة:٧٥]. =

مؤلفاته المذكورة فيما بعد، رقم ٣٥، ٤٠، ٤٣، ٤٥) كتب رسائل يعارض فيها صيانة معابد اليهود أو بناءها، وعلىٰ الأخص الكنائس (انظر كتابه رقم ٤٦).

ولم يتفق علماء المسلمين في سُنية ابن تيمية؛ ومن بين الذين يرمونه بالزندقة -علىٰ أقل تقدير- ابن بطوطة، وابن حجر الهيتمي وتقي الدين السبكي، وابنه عبد الوهاب، وعز الدين ابن جماعة وأبو حيان الظاهري الأندلسي وغيرهم، ومع ذلك فربما كان عدد الذين يمدحونه أكثر من عدد الذين يذمونه، فمن بين الذين يمتدحونه: تلميذه ابن قيّم الجوزية، والذهبي، وابن قدامة، والصرصري الصوفي، وابن الوردي، وإبراهيم الكوراني، وعلي القاري الهروي، ومحمود الآلوسي، وغيرهم.

ولا يزال الخلاف في ابن تيمية باقيا إلىٰ يومنا هذا، فلم يرحمه يوسف النبهاني في كتابه "شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق" (طبعة القاهرة ١٣٢٣ هـ) وردّ علىٰ هذا الكتاب أبو المعالي الشافعي السلامي في كتابه "غاية الأماني في الرد علىٰ النبهاني" (طبعة القاهرة ١٣٢٥).

= وقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣].

ونحن نعلم أن مؤسس الوهابية اتصل بعلماء دمشق الحنابلة، فمن الطبيعي أن يكون قد استفاد من مؤلفاتهم، وعلىٰ الأخص من تعاليم ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وأصول هذا المذهب الجديد هي التي كان يحارب من أجلها ابن تيمية المتكلم الحنبلي العظيم طيلة حياته.

وانتهىٰ إلينا من بين آثاره الخمسمائة التي يقال إنه صنفها:

١. رسالة الفرقان بين الحق والباطل.
٢. معارج الوصول، وهو تفنيد لقول الفلاسفة والقرامطة الذين يذهبون إلىٰ أن الأنبياء قد يكذبون في بعض الأحيان.
٣. التبيان في نزول القرآن.
٤. الوصية في الدين والدنيا (ويطلق عليه "الوصية الصغرىٰ").
٥. رسالة في النيَّة في العبادات.
٦. رسالة العرش هل هو كُرِيّ أم لا؟
٧. الوصية الكبرىٰ.
٨. الإرادة والأمر.
٩. العقيدة الواسطية.
١٠. المناظرة في العقيدة الواسطية.
١١. العقيدة الحموية الكبرىٰ.
١٢. رسالة في الاستغاثة.

١٣. الإكليل في المتشابه والتأويل.

١٤. رسالة الحلال.

١٥. رسالة في زيارة بيت المقدس.

١٦. رسالة في مراتب الإرادة.

١٧. رسالة في القضاء والقدر.

١٨. رسالة في الاحتجاج بالقدر.

١٩. رسالة في درجات اليقين.

٢٠. كتاب بيان الهدىٰ من الضلال في أمر الهلال.

٢١. رسالة في سنة الجمعة.

٢٢. تفسير المعوذتين.

٢٣. رسالة في العقود المحرمة.

٢٤. رسالة في معنىٰ القياس.

٢٥. رسالة في السماع والرقص.

٢٦. رسالة في الكلام علىٰ الفطرة.

٢٧. رسالة في الأجوبة عن أحاديث القُصّاص.

٢٨. رسالة في رفع الحنفي يديه في الصلاة.

٢٩. كتاب مناسك الحج. وهذه الأبحاث الصغيرة جمعت في مجموعة عنوانها "مجموعة الرسائل الكبرىٰ"، طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ.

٣٠. الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (القاهرة ١٣١٠، ١٣٢٢ هـ).

٣١. الواسطة بين الخلق والحق (القاهرة ١٣١٨ هـ).

٣٢. رفع الملام عن الأئمة الأعلام (القاهرة ١٣١٨، ١٣٢٣ هـ).

٣٣. كتاب التوسل والوسيلة (القاهرة ١٣٢٧).

٣٤. كتاب جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن (انظر. Revue Afrio، سنة ١٩٠٦، ص ٢٦٧) القاهرة ١٣٢٢ هـ.

٣٥. الجواب الصحيح لمن بَدَّل دين المسيح، وهو في الرد على رسالة بولس أسقف صيداء وأنطاكية، وفيها هاجم المسيحية ورفع من شأن الإسلام. القاهرة ١٣٢٢ هـ Een Arab. Hands-: P. de Jong) - Chrift, behelzende Verslagen en bestrij ding van het Christendom -Mededeel ingen der Kon. Akad, van Wetenschappen afd . Letterkunde السلسلة الثانية، المجلد الثامن، ١٨٧٨، ص ٢١٨ - ٢١٩؛ ٢٣٢ - ٢٣٣؛ . Revue Afric 1906، ص ٢٨٣).

٣٦. الرسالة البعلبكية (القاهرة ١٣٢٨ هـ).

٣٧. الجوامع في السياسية الإلهية والآيات[١] النبوية (بومباي ١٣٠٦ هـ).

٣٨. تفسير سورة النور (طبع على هامش جامع البيان في تفسير القرآن، وطبع طبعة حجرية في دهلي ١٢٩٦ هـ).

٣٩. كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول (حيدر آباد ١٣٢٢ هـ).

٤٠. تخجيل أهل الإنجيل وهو رد على النصرانية[٢]، فهرس مكتبة بودليانا جـ ٢، ص ٤٥، واستعان به ماراتشي Maracci في بحثه التمهيدي لكتابه Refutatio Alcorani

٤١. المسألة النصيرية، وهي فتوى ضد النصيرية الذين كانوا يقطنون جبال الشام، ترجمها Guyard في المجلة الأسيوية، السلسلة السادسة سنة ١٨٧١، جـ ١٨، ص ١٥٨؛ Salsbury . Journ. Amer. Or. Soc جـ ٢، عام ١٨٥١، ص ٢٥٧؛ القاهرة ١٣٢٣.

٤٢. العقيدة التَدْمُرِيَّة (برلين رقم ١٩٩٥).

---

(١) كذا، وصوابه (الإيالة) وهي السياسة كما بينته في تحقيقي للكتاب. وسيعاد برقم ٥٨.

(٢) يظهر أنه نفسه الجواب الصحيح المتقدم برقم ٣٥.

٤٣. اقتضاء الصراط المستقيم ومجانبة أصحاب الجحيم. وهو في الرد علىٰ اليهود والنصارىٰ (برلين رقم ٢٠٨٤).

٤٤. جواب عن "لو" (طبع علىٰ هامش كتاب السيوطي "الأشباه والنظائر"، حيدر آباد ١٣١٧ هـ، جـ ٣، ص ٣١٠).

٤٥. كتاب الرد علىٰ النصارىٰ (فهرس المتحف البريطاني، الفهرس رقم ٨٦٥، ١).

٤٦. مسألة الكنائس (المكتبة الأهلية، رقم ٢٩٦٢، ٢).

٤٧. الكلام علىٰ حقيقة الإسلام والإيمان (برلين رقم ٢٠٨٩).

٤٨. العقيدة المراكشية (برلين رقم ٢٨٠٩).

٤٩. مسألة العُلُوّ، وهي مسألة "العلو" في التحدث عن الله (برلين رقم ٢٣١١،مكتبة كوتا رقم ٨٣، ٣؛ ميونخ رقم ٨٨٥، ٥).

٥٠. نقد تأسيس الجهمية (ليدن رقم ٢٠٢١).

٥١. رسالة في سجود القرآن (برلين رقم ٣٥٧٠).

٥٢. رسالة في سجود السهو (برلين رقم ٣٥٧٣).

٥٣. رسالة في أوقات النهي والنزاع في ذوات الأسباب وغيرها (برلين رقم ٣٥٧٤).

٥٤. كتاب في أصول الفقه (برلين رقم ٥٤٩٢).

٥٥. كتاب الفرق المبين بين الطلاق واليمين (ليدن رقم ١٨٣٤).

٥٦. مسألة الحلف بالطلاق (فهرس دار الكتب المصرية، جـ ٧، ص ٥٦٥).

٥٧. الفتاوىٰ (برلين رقم ٤٨١٧ - ٤٨١٨).

٥٨. كتاب السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (فهرس المكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٤٤٣ - ٢٤٤٤) [١].

٥٩. جوامع الكلم الطيب في الأدعية والأذكار (فهرَس دار الكتب المصرية، جـ ٧، ص ٢٢٨، آيا صوفيا، رقم ٥٨٣).

٦٠. رسالة العبودية.

٦١. رسالة تنوع العبادات.

٦٢. رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور.

٦٣. رسالة المظالم المشتركة.

٦٤. الحسبة في الإسلام (طبعت آثاره من رقم ٥٩ إلىٰ ٦٣ مع رقم ٢، ٣١، ٣٢، ٤١ بالقاهرة عام ١٣٢٣ هـ في "مجموعة الرسائل" ص ١ - ٢٢٢، ١ - ٩٢).

(١) هو نفسه ما سبق برقم ٣٧ .

المصـــادر

غير ما ذكر في صلب المادة انظر:

(١) الـذهبي: تـذكرة الحفـاظ، طبـع بحيـدر آبـاد طبعـة غيـر مؤرخة، جـ ٤، ص ٢٢٨.

(٢) ابن شاكر الكتبي: الفوات، بـولاق ١٢٩٩ هـ جـ ١، ص ٣٥ (والترجمـة الـواردة في هـذا الكتـاب مـأخوذة مـن كتـاب "تذكرة الحفاظ" لابن عبد الهادي جـ ١، ص ٤٢).

(٣) السبكي: الطبقات القاهرة ١٣٢٤ هـ جـ ٥ ص ١٨١ - ٢١٢.

(٤) ابـن الـوردي: تـأريخ، القـاهرة ١٢٨٥ هـ، جـ ٢، ص ٢٥٤، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٩، ٢٨٤ - ٢٨٩.

(٥) ابن حجر الهيتمي: الفتاوىٰ الحديثة، القاهرة ١٣٠٧ هـ، ص ٨٦ وما بعدها.

(٦) السيوطي: طبقات الحُفَاظ، جـ ٢١، ص ٧.

(٧) الآلوسي: جـلاء العينـين في محاكمـة الأحمـدين، وعلىٰ هامشـه "القـول الجلـي في ترجمـة الشـيخ تقـي الـدين بـن تيمية الحنبلي" لصفي الدين الحنفي، بولاق ١٢٩٨ هـ.

(٨) محمد بن أبي بكر بـن ناصـر الـدين الشـافعي: الـرد الـوافر علىٰ من زعم أن من سمىٰ ابن تيمية شيخ الإسلام كافر.

(٩) مرعي بن يوسف الكرمي: الكواكب الدرية في مناقـب ابـن تيمية .... إلخ، طبع في مجموعة بالقاهرة ١٣٢٩ هـ.

(١٠) ابن بطوطة، طبعة باريس، جـ١، ص ٢١٥ - ٢١٨.

(١١) Die Geschichtschreiber: Wustenfeld der Araber قسم ١٩٧، رقم ٣٩٣.

(١٢) Die Zahiriten: Goldziher، ليبسك سنة ١٨٨٤، ص ١٨٨ - ١٩٢.

(١٣) الكاتب نفسه في. d Zeitschr. Deutsch. Morg. Ges، المجلد ٥٢، ص ١٥٦ - ١٥٧ المجلد ٦٢ ص ٢٥ وما بعدها.

(١٤) الكاتب نفسه: Vorlesungen uber den Islam انظر فهرس الكتاب.

(١٥) Schreiner في Zeitschr Deutsch.Morg. Ges المجلد ٦٢، ص ٥٤٠ وما بعدها؛ المجلد ٥٣، ص ٥١ وما بعدها؛ وفي Rev. des Etudes Juives. المجلد ٣١،سنة ١٨٩٦ هـ ص ٢١٤ وما بعدها.

(١٦) Development of: D. B. Macdonald . Theology etc Muslim ص ٢٧٠ - ٢٧٨؛ ٢٨٣ - ٢٨٥.

(١٧) Gesch. d. Arab. Litt.: Brockelmann جـ ٢، ص ١٠٠ - ١٠٥.

(١٨) Hist. de la Litt. Arabe: Huart . ص ٣٣٤ وما بعدها.

[محمد بن شنب]

فهـرس الـموضوعات

تصديـــر ٥
التعريفُ بابـن تيميَّة للشيخ العلامة محمـد أبو زهـرة ١١
❁ مولد ابن تيمية: ١٤
❁ نشأته: ١٦
❁ البيئة الأولىٰ التي وجَّهَته: ١٩
❁ توليه التدريس في كرسي أبيه: ٢٢
❁ محنة الشيخ: ٢٧
❁ المحنة الأولىٰ: ٣٠
❁ عودة الشيخ إلىٰ الشام: ٤٣
❁ المحنة الثالثة: ٤٩
❁ المحنة الأخيرة: ٥٠
❁ صفاته: ٥٩
❁ من محراب العلم إلىٰ ميدان الحرب والسياسة: ٦٣
❁ عصرُ ابن تيمية ٧٠
❁ الحال السياسية: ٧١
❁ الحال الاجتماعية: ٧٥
❁ الحال العلمية والفكرية: ٧٨

❁ الدراسات العلمية: ٧٩
❁ الصوفية والمتصوفة: ٨٢
❁ منزلة العلماء: ٨٦
ترجمة ابن تيمية من كتاب كنـوز الأجـداد لـمحمد كرد علي ٩١
❁ طلبه للعلم ٩٣
❁ أخلاقه ٩٤
❁ محنة ابن تيمية ٩٩
النشأة العلمية عند ابن تيمية وتكوينـه الفكـري- هنـري لاوسـت... ١١١
ابن تيمية، محيي السُّنَّة- لنقـولا زيـادة ١٣٥
ابـن تيميـة من دائـرة الـمعارف الإسلاميـة ١٤٥
فهـرس الـموضوعات ١٦٣